أسوار القرية

سامح فايز

رواية: أسوار القرية
المؤلف: سامح فايز

تدقيق لغوي: آية النزهي
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 23868 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85544-9-6
الطبعة الثالثة: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

أسوار القرية

(رواية)

سامح فايز

حشيش

لم يُبدِ صديقي حسين أي اندهاش، عرَض على الفور أن يُلبي، لَم يسألني تفسيرًا، كأنني طلبتُ أمرًا اعتياديًا يأتيه الناس، متناسيًا أنني حتى وقتٍ قريب كنتُ ابنًا للجماعة الدينية.

– حشيش!

اكتفيت بتلك الكلمة على أمل أن يُدرك حسين.

– عدِي عليَّ في البيت بالليل.

نظرتُ إلى صديقي منتظرًا أن يحُيلني إلى العدم، قد لا أملك الجُرأة على قتل نفسي، لكنني مؤكد أستطيع قتل قدرة عقلي على العمل.

في المساء ذهبتُ لمنزل حسين، تركني لدقيقة ثم عاد وهو يحمل المطلوب، أحضر قطعة حشيش مع علبة تبغ وكأس وجلس أمامي بعد أن جلجلتْ ضحكته قائلًا:

– مساء الأُنس يا مولانا.

قررتُ للحظة تناسي الحلال والحرام، أمسكتُ بقطعة الحشيش، تأملتها كأنها قطعة حلوى، أرسل حسين ضحكةً خبيثةً، فَهمتُ مُرادها دون سؤال.

– صبح صبح يا عم الشيخ.

– أنا مش شيخ.

– إنت قلبت جرجس ولا إيه؟

– لا شيخ ولا جرجس.

أخرج حسين مطواة من جيب بنطاله وقسَّم بها قطعة الحشيش لأجزاءٍ متساوية، أمسك بعلبة التبغ وأخذ قطعة سيلوفانة من تلك التي تُبطّن بها العلبة وأغمد فيها حشيشته وأحكم الإغلاق.

ثم أحضر عُود ثِقاب وأشعله ودار بالعُود حول قطعة السيلوفانة لعدة ثوان، ثم وضع عود الثقاب جانبًا وأخرج قطعة الحشيش وفركها سريعًا فتحولت إلى تُراب غمسه بالتبغ الذي كان قد أفرغه مِن سيجارته.

خلط حسين تُراب الحشيش بتبغ السيجارة ثم أحضر ورقة بَفرة كتلك التي حوَت تبغ السيجارة وأخذ يصنع سيجارته الخاصة رغم أنَّ إعداد السيجارة لَم يَطلْ إلَّا أنَّ الوقت كان يمر بطيئًا جدًا.

في لحظات عِدة تهيأتُ للخروج، كنتُ أجبر نفسي على الجلوس والانتظار.

أنهى حسين سيجارته وأشعلها ثم وضعها في فمه بطريقةٍ كأنه يُقبِل فتاة، شَرِب، ثم مررها إليَّ قائلًا: «**موت يا معلم**».

رغبة في القيء داهمتني بعد بضعة أنفاس من سيجارة الحشيش، نظرتُ إلى حسين وشعرْتُ أنَّ روحي ترحل عني، أرسل حسين ضحكاته المعتادة قائلًا: «**كُلُّهم في الأول كده**».

بعد دقائق شعرتُ بسوادٍ يحجب الرؤية، سألته إن كان قد أغلق نور الغرفة، لم يَردْ وأرسل تلك الضحكة مرةً أخرى.

شعرتُ بشيء يمنع عني أنفاسي وضربات متزايدة تكاد تفتك بقلبي، طلبتُ منه أن يساعدني في الوصول لباب منزلي، أعجز حتى عن الوقوف على قدمي بطريقةٍ سليمة، لماذا لا يتأرجح حسين في سيره مثلي؟!

ربما بحُكم العادة، ما زال يُرسل ضحكاته بشكلٍ ماجن، لماذا لا أضحك أنا أيضًا وقد شربنا من نفس السيجارة؟!

وصلتُ إلى باب منزلي بمعاونة حسين ثم تركني على موعدٍ آخر نُكمل فيه رحلتنا مع الحشيش.

وقفتُ لدقيقة أمام المنزل محاولًا تَذكُر ما عليَّ فِعله في اللحظة المقبِلة، لماذا أقف أمام هذا الباب بالذات؟ كنتُ أشعر بحواجز كثيرة تمر أمام مُخيلتي تحجب عني الرؤية ثم تختفي، ثم تعود فتختفي، وأنا أقف محاولًا التقاط لحظات الرؤية لأُدرك ما المطلوب الآن؟

أدركتُ بعد وقتٍ لم أتمكنْ مِن تحديده أنني يجب أن أُخرِج مفتاح الباب من جيب بنطالي وأضعه في القفل كي يأذن لي بالدخول، أحتاج ذلك وقت آخر لا أعلمه هو أيضًا وكأن الزمن قد توقف، فلا أعلم هل الساعة تسير للأمام أم ترجع إلى الخلف؟

دخلتُ إلى المنزل وأغلقتُ الباب خلفي، استلزمتُ المسألة أكثر من مَرة أرحل بعيدًا ثم أعود إلى الباب، ذلك لأن شكًا ساورني أنني تركته مفتوحًا على مصراعيه.

وصلتُ إلى غرفتي فألقيتُ نفسي على السرير، كان ذلك هو الخطأ الأكبر حتى من تدخين سيجارة الحشيش، شعرتُ فجأة وكأن جسدي ينكمش بسرعةٍ هائلةٍ وقد استحال إلى دوائر تدور حول نفسها في حلقة، وأثناء دورانها ينكمش محيطها ليَقِل أكثر فأكثر.

قلتُ أذكار الاستغفار، ورددتُ الشهادة؛ ظنًا مني أنني أموت، اعتقدتُ حينها أنَّ سَكرة الموت أتتني، ذلك غضب الرَّب الذي حدثونا عنه مرارًا في كُتاب الشيخ بالقرية، أغمضتُ عيني إلَّا أنَّ الرؤية لم تحتجبْ.

كانت تلك الحواجز أمام عيني ما زالت تروح وتجيء ولا تنتهي، أكملتُ أذكار الاستغفار والحوقلة وأخذتُ أُردد قائلًا: «**لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين**».

جاهدتُ نفسي لأنْ أجلس محاولًا مقاومة تلك الدوائر التي تنكمش، والجسد الذي تخيل لي أنه يصغر، وقلبي الذي كاد ينفطر، فلم أَقدر. سألتُ نفسي هل أموت وأُبعث يوم القيامة على ذلك؟

***

صِرتُ أنتظر عودة حسين من عمله، بعد المَرة الأُولى اكتشفتُ أنَّ المسألة هينة، لم أُقتَل في ذلك اليوم، ولم أُسخط خنزيرًا لأنني أغضبتُ الرَّب، ولم ينتبه أحد لفعلتي من الأساس.

فور أن أسمع صوت حسين أسرع لشرفة منزلي، كان منزله يلاصق منزلنا في القرية، يرفع رأسه إلى الشرفة قبل أن أنطق اسمه، تعَود هو الآخر على هذا الضيف الدائم.

حسين لم يطلبْ مني يومًا أن أُشاركه في ثمن الحشيش، كان يحتاج جليسًا يُؤنسه تلك اللحظة، هو أيضًا كان حديث عهدٍ بالحشيش. نقوم بالمعتاد كل ليلة، نُعد سيجارة الحشيش ونتبادلها سويًا.

حسين لم يكنْ جاري في القرية وفقط، فهو إلى جانب ذلك زميل دراسة، فنحن في نفس العمر، كان يعمل في إحدى ورش الميكانيكا بعد

انتهاء الدراسة.

العمل في الورشة لم يمنع حسين من الاهتمام بدراسته، كان أكثر أصدقائي اهتمامًا بمظهره؛ تلك النظارة الأنيقة التي كانت لا تفارقه ونحن في المدرسة الإعدادية، القميص الذي مَرت عليه المكواة بإحكام، الشَعر الذي كان يغدق عليه كل أنواع الكريمات والزيوت.

كان يملك صوتًا عذبًا، يجتمع الأصدقاء حوله كثيرًا ليطربهم بأحدث الأغنيات، بل كان يكتبها في أحيانٍ كثيرة. لكن على غير العادة قرر حسين أن يلتحق بالتعليم الصناعي، رغم أنَّ الثانوية العامة كانت الطريق الأسهل للحاق بالجامعة، وللعالَم الذي يحلم به حسين.

إلَّا أنَّ حسين أحب عمله في ورشة الميكانيكا، أراد أن يُكمل في المدرسة الصناعية ومنها ينتقل إلى كُلية الهندسة، لكن ما حدث ونحن في نهاية التعليم الثانوي بدَّل مسار الرحلة تمامًا.

أُصيب حسين وهو يعمل في الورشة، كانت إصابة بالغة، احتاج حسين لأكثر من أربع سنوات حتى يتم شفاؤه، ذهَبتْ الرغبة في إكمال تعليمه الجامعي وقرر أن يُكمل عمله في ورشة الميكانيكا.

في تلك الورش أنت تحتاج للخِبرة العملية، الشهادة ليست بذات أهمية، إلَّا أنها على ما يبدو كانت بذات أهمية إلى حسين، تحول لشخصٍ آخر غير الذي كنتُ أعرفه، وذهب ذلك الاهتمام الذي كان يوليه لمظهره، حتى الحياة التي كان أكثرنا حُبًا لها صار لا يهتم بها.

عزف حسين عن كتابة الشعر، لكنه ظل مُحبًا للغناء، إلَّا أنَّ نوعية الغناء اختلفت، كنتُ كثيرًا ما أسمع صراخًا وعويلًا من ذلك الذي يتميز به الغناء الشعبي، وأضحتْ الدنيا في نظر حسين هي الورشة صباحًا،

وسيجارة الحشيش في المساء.

بمرور الوقت أصبحتْ سيجارة الحشيش هي ملاذي أنا أيضًا، عندما تضيق عليَّ الأرض بما رَحُبت؛ أصنع تلك السيجارة السحرية التي تفتح أبواب الراحة بعد تناولها، وتعطيني الضحكة التي كثيرًا ما تبخل بها الدنيا.

– مفيش حشيش!

هكذا قال حسين بعد أن أصبحتُ أنا وتلك السيجارة السحرية أصدقاء لا نفارق بعضنا البعض.

– إنت بتهزر صح؟

– يا عم صدقني ما فيش حشيش اليومين دُول، الحكومة شدَّة حيلها شوية والتجار مهدين اللعب، بس ما تقلقش، جبتلك حاجة مش أقل من الحشيش، تعددتْ الأسباب والموت واحد يا عم الشيخ.

– حاجة غير الحشيش؟

– خمرة، هتلف أملك النهاردة.

سقطتْ الكلمة على أُذني كمَن ضربني بعصا غليظة على رأسي.

– خمرة لأ.

– هو يعني الخمرة حرام والحشيش بلح رمضان، ما الاتنين واحد يا شيخ.

– لا يا عم الناصح، الخمرة في قرآن بيحرمها، إنما الحشيش لأ.

– يا أخي المشايخ دول ليهم العجب، يحللوا ويحرموا على مزاجهم، ما الاتنين بيسافروا بالدماغ ورا الشمس، أنا برضه اللي هقولك يا مولانا.

– خمرة لأ.

– خمرة آه، وكلمة كمان هرميك من الشباك، ما تبوظش علينا اليوم.

بعد وقت من السجال ليس بالطويل مع حسين رضختُ لمسألة الخمر تلك، وكأن شغفًا داخلي لكل ما كان مرفوضًا في الماضي يجذبني ناحيته، أدركتُ حينها أنَّ المسألة ليست في الحشيش أو شُرب الخمر، إنما أهدم بذلك تابوهات سيطرتْ على عقلي لسنوات.

دائمًا ما كنتُ أعرف أنَّ تلك ذنوبًا تقتل صاحبها، أتجنبها من بعيد، لا أعرف كنهها، كانت طلاسم أسمع عنها، وأبغضها وفقط، لكن لا أفهم السِر خلف حجبها عن دنيانا، إن كانت خطرًا فلِم لَم تُحجب من الأساس؟! لماذا خلقها الله؟!

وافقتُ حسين على مسألة الخمر اليوم بديلًا عن الحشيش. كنتُ أتعجب من نفسي، وكان حسين أكثر تعجبًا، نظر إليَّ وابتسامة استفهامية تُغطي وجهه قائلًا: «**انت ملكش مِلة**».

لم أكنْ أُجهد نفسي بالبحث في خبايا المسألة، أريد أن أنسى. شربتُ كأسًا، وتَبع الكأس كؤوس، وأنهيتُ زجاجة الخمر.

***

خرجتُ من المنزل لا ألوِي على شيء، كان كلما احتُدِم النقاش بيني وبين والدي الشيخ تركتُ كل شيء فجأة ورحلت، كان من حولي يُسموه هربًا، كنتُ أُفضل تسميته عُزلة أعيد فيها قراءة نفسي، وكثيرًا ما كنتُ أعتزل. لم أَكنْ أعلم حين تركتُ والدي وخرجتُ من المنزل إلى أين الطريق، تركتُ قدمي تُحدد وجهتي.

أصبح حالي لا يعجب والدي الشيخ، بدأ يشعر بتلك التغيرات في حياتي، لم يعدْ يراني في المسجد، ودائمًا ما ساورته الشكوك في مسألة مواظبتي على العبادات، المصحف الذي علته الأتربة، من المؤكد أن أصدقائي في تلك الجماعة حضروا إلى المنزل مستفسرين عن سر تغيبي عنهم الفترة الأخيرة، لم أَعدْ أشاركهم سبيلهم في الدعوة، ولا جلساتهم الدينية المغلقة.

كنتُ دائمًا الأول في كل شيء، أما الآن فأنا لا أكاد أظهر حتى في الطريق أمامهم، جميع تلك المسائل بالإضافة إلى شكوك والدي جعلته يستوقفني في ذلك اليوم ليستفسر مني منتظرًا إجابة، كان جوابي غير شافٍ، ألحَ في انتظار إجابة مقنعة، اكفهر وجهي وتأففتُ من الحوار.

اندهش أبي واندهشتُ أنا قبله، لم أعامل والدي بتلك الطريقة من قبل، لم يتمالك الشيخ نفسه ورفع يده إلى الهواء وبدا أنه يريد ضربي، تسمرتُ مكاني، وقفَتْ يده في الهواء، مَرتْ دقيقة، لا هو ضربني ولا أنا أبديتُ أي رد فعل.

أدرتُ ظهري وأسرعتُ بالخروج، هربت، اعتزلت، خرجتُ إلى الشارع وأخذتُ أُدقق في كل شيء من حولي، لماذا لا ينطق الجماد ويخبرني؟ الناس ينطقون لكن كل كلامهم خرافات، والسماء لا يعلم أحد عنها إلَّا ما نطق به الناس. ربما لو نطق الجماد لأتى بجديد.

عقل والدي لم يُترجِم ما حدث، بعد أن أعطيته ظهري وخرجتُ من المنزل ببضعة شهور سقط.

طبيب المستشفى الحكومي التابع لها عمل أبي لم يشرح لنا المسألة، تلك كانت العادة دائمًا، حضرتُ مع والدي قبل ذلك بضع مرات، كان الطبيب يعامل المرضى هو وزملاؤه وكأنهم شحاذون، لا كأنهم أصحاب حق في ذلك المستشفى.

بعد شهر من سقوط أبي في غيبوبة رحل عن الدنيا، ودعتُ أبي إلى مثواه في مقابر عائلتي بمحافظة بني سويف. الجميع ترجم صمتي على أنه حُزن مِن فقدان والدي، كانوا يسعون بشتى الطرق للتهوين على قلب ذلك الشاب المكلوم.

لم أجد ترجمة لتلك الابتسامة الخفيفة التي علتْ وجهي في خِلسة من الجميع، تمالكتُ نفسي وأخفيتها سريعًا، حضَرتْ إلى ذهني جلسات تدخين الحشيش مع صديقي حسين، نظرتُ إلى السماء وتمتمتُ بصوتٍ لم يسمعه غيري، لقد رحل الشيخ عن دنيانا.

جلستُ أمام قبر والدي، صمت لبضع دقائق ثم تحدثت، أردتُ أن أحكي لأبي لعله يُدرك أو لعلني أفهم.

***

عائلة

أمي، لم تَكنْ تعلم أنه ثَمة حياة أخرى في انتظارها، وأنَّ أبناءها في المستقبل لن يُلاقوا تلك المعاناة التي يُلاقيها أبناء القرية في نهاية السبعينيات من القرن الماضي أضحتْ عروسًا يطلبها الخُطاب.

كان هناك من شَغِف بها حُبًا وقرر أن تكون زوجته، ذلك الحبيب لم يَكنْ سِوى أبي، كان في السابعة عشرة من عمره عندما طلب من والده أن يخطبه إياها.

في البداية وكعادة الآباء رفض جدي لأبي تلك الزيجة على اعتبار أنه يجب أن يختار عروس ولده بنفسه حتى يضمن أن يكون اختيارًا صائبًا، إلَّا أنَّ أبي رفض الانصياع لرغبة والده، وزاد أنه حينما عَلم أنَّ أحد الخُطاب يطرق باب حبيبته قرر أن يحمل في يده سكينًا ويذهب إلى دارهم. وقف والدي على باب الدار وقال: «**سأقتل مَن يقترب من منزلها**».

شفع لأبي أنَّ هناك صلة قرابة بين والده ووالد حبيبته، لولا ذلك لما مَرَّت المسألة على خير، فتلك المسائل في القرى يُراق لها الدماء.

انتقلتْ والدتي من بيت أبيها إلى غرفة من الطوب اللبِن سقفها من الخوص وقِطع الأشجار.

بعد بضع سنوات من الزواج التحق زوجها بالقوات المسلحة، وبمجرد إنهاء فترة تجنيده قرر أن يشدَّ الرحال إلى القاهرة. كانت الهجرة إلى القاهرة في تلك الآونة هي الملاذ الذي ظنا أنه سينتقل بهما من حالٍ إلى حال، غير أنَّ ما حدث بالفعل أنَّ الاختلاف كان فقط في حجم الألم،

فقد انتقلا من فقر إلى فقر.

***

وكأني أنظر إلى أبي الآن مهاجرًا من قريته النائية بمحافظة بني سويف شادًّا رحاله إلى القاهرة، يرجو أن يجد فيها الحياة الأخرى التي فقدها في قريته. أتلمس خوفه من القادم. أستشعر رهبته على أبنائه وزوجته وهو الشاب الصغير في وطن لا أرض ولا عائلة ولا مال فيه. لا يملك سوى إيمانه بالله ثم نفسه. أنه سيكون يومًا أو يكون أحد أبنائه ما فقده في تلك الأرض البعيدة.

أتذكر يده الحانية على رأسي حينما كنتُ أقرأ له بعض كلماتي التي أسطرها في وريقاتي. وأذكر كلماته حين يقول: «**إنت لازم تكون كاتب كبير**».

ظننتُ أنَّ ذلك حلم يراود أبي ولا علاقة له بالحقيقة. فأبي الموظَف بهيئة النقل العام الذي بالكاد يكفي أسرته قوت يومها لا يُدرك أنَّ الأمر جدّ صعب، وأن الحياة لا تُلقي بظلال قسوتها إلَّا على البسطاء من ساكنيها.

قرار هجرة أبي من قريته بمحافظة بني سويف في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي كان من الصعب اتخاذه. تلك القرية التي شهدتْ بدايته وعلى أرضها تعيش عائلته التي يمتد جذرها إلى مائتي عام مضت أو يزيد، إلَّا أنَّ ضيق الحال دفعه إلى ذلك؛ ليبحث عن ملاذٍ في أرضٍ أخرى. وكان الاختيار هو النزوح إلى القاهرة.

ومن قرية إلى قرية كان السبيل. ترك أبي قريته في محافظة بني سويف ليضع رحاله في قرية أخرى هي قرية كَفر غطاطي بمحافظة

الجيزة، واحدة من توابع مركز كرداسة، والتي شهدت مولدي في العام 1985م وهي أيضًا التي شهدت صراعًا امتدَّ داخلي لأكثر من 15 عامًا.

***

في غرفةٍ صغيرة استأجرها أبي من إحدى عائلات كَفر غطاطي كان مولدي. لم يكنْ قد مرَّ عام على الحياة الجديدة لأُسرتي. ولم يكنْ أبي قد استقر في عملٍ دائمٍ بعد. فهو يتنقل من عملٍ إلى آخر، وكانت كلها في إطار أعمال (الفواعلية)؛ وهو عمل ليس بالدائم.

يخرج صباحًا ويذهب إلى مكان يتجمع فيه زملاء المهنة الشاقة وينتظرون الفرج، أن يأتي صاحب حاجة ليصطحب معه بعض العمال وهكذا كل ليلة. لكن تلك المهنة لم تكنْ هي السبيل الآمن لأسرة من أب وأم وثلاثة أبناء في أرض لا عائلة ولا ظهير لهم فيها.

قرر أبي أن يطرق أبواب الوظائف الحكومية قبل ولادتي ببضعة أشهر، وكانت نتيجة بحثه أن التحق للتدريب بوظيفة سائق بهيئة النقل العام.

لكن التدريب قد طال، ومَرَّتْ ستة أشهر دون أن يتم قبوله في الوظيفة؛ دائمًا ما يفشل في الاختبارات المطلوبة لتعينه سائقًا. حتى جاء موعد ولادتي الذي تزامن مع قبول أبي في الوظيفة.

بمرور الوقت انتقلنا من الغرفة إلى منزلٍ آخر مستأجَر أكثر رحابة. وبعد خمس سنواتٍ من العَناء امتلك أبي قطعة أرض صغيرة وأقام عليها منزلنا بقرية كَفر غطاطي.

نعم كان منزلًا صغيرًا يتكوّن من غرفةٍ واحدة أيضًا، لكنَّه كان علامة

من علامات النجاح لأبي، فهو لم يفشلْ في رحلته إلى القاهرة، وأصبح يملك منزله الخاص. في تلك اللحظة صارت القرية وطنًا، وتأكد أننا نرمي بذرة عائلة جديدة.

***

عندما كنتُ طالبًا في المرحلة الثانوية دفعني الفضول للبحث في تاريخ كَفر غطاطي. إلَّا أنَّ رحلتي باءت بالفشل. فلم أجد لها ذِكرًا في كِتاب (الخطط التوفيقية) لعلي باشا مبارك.

في خطط علي باشا عثرتُ فقط على مركز كرداسة، والذي يحد قريتي من الشمال وإليه تمتد جذور معظم عائلات القرية. وكنتُ أندهش كيف لم يذكرها علي باشا في خططه على الرغم من أنه أقدم قاطنيها، عاش فيها منذ قرنين من الزمان كما يُردد أهلها.

لا يعرف أهل القرية أي شيء عنها، يرددون عند الحكي عن تاريخ المكان بعض الأسماء المُجهلة تمامًا، يقولون: سكنها (رسل باشا)، و(الصيرفي باشا)، أو (المنيكلي باشا)، لكنَّهم لا يعرفون مَن هؤلاء، وما حكاياتهم.

عُدْتُ إلى البحث مرة أخرى بعد سنوات، البداية كانت في كتاب القاموس الجغرافي للبلاد المصرية منذ عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م بالبحث عن المرادف لكلمة كَفر عَرفت أنَّ القرية والبلدة والناحية كلمات مترادفة مستعملة في مصر منذ الفتح العربي الأول.

وكلمة كَفر استُعملت دلالة على القرية الصغيرة منذ عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك. وكلمة نجع ونزلة من توابع القرية معروفة منذ زمن العثمانيين. وكلمة أبعادية وعزبة وقصر ومنشأة عُرفت منذ زمن

محمد علي إلى اليوم.

في اللغة كفر الشيّء/ كفر على الشيّء أي ستَره وغطّاه، مثل: كفَر الزّارعُ البذرَ بالتراب وفي القرآن: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**﴾ والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر أي يغطونه بالتراب.

وقرية كَفر غطاطي كانت تُسمى غطاطي حتى سنة 1945م، ثم فُصلت عن كرداسة وسُميت ناحية غطاطي وعُين عليها عُمدة مستقلًا عن عُمدة كرداسة ونواحيها.

لم أستطعْ أن أعرف تحديدًا حتى الآن متى بُدل الاسم من ناحية غطاطي إلى كَفر.

عندما بحثتُ في السجلات العينية في هيئة المساحة وجدت أنَّ غطاطي مُقَسَّمة حتى اللحظة لأحواض زراعية ولا توجد أسماء شوارع.

سكن غطاطي أيضًا بعض العائلات التي تركت كرداسة واستقرت في الكَفر، ولأن كفر تُنسب للرجال عند العرب نُسبت المنطقة لرجل اسمه (غطاطي)، وهو عربي مغربي كان أول من سكنها، وأصبح اسمها كَفر غطاطي، والذي أصبح منذ عام 1945م عُمدة للقرية. ويقع منزله الكبير في مدخلها، على مساحة كبيرة، إلَّا أنه بات مهجورًا لا يسكنه أحد.

حين تحدثتُ مع بعض شيوخ القرية تردد اسمٌ آخر (رسل باشا)، وعندما بحثتُ عنه ساقني الاسم إلى حادثة كوبري عباس الشهيرة.

كنتُ قد قرأتُ عن تلك الحادثة التي وقعتْ في وزارة (محمود فهمي النقراشي باشا) يوم 9 فبراير 1946م.

آمال كبيرة في الاستقلال امتلكتْ مشاعر المصريين بعد الخدمات

التي قامت بها الدولة المصرية لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية، غير أنَّ ذلك لم يحدثْ، وكانت النتيجة مظاهرات 1946م.

عندما وصل المتظاهرين إلى كوبري عباس قامت الشرطة بفتح الكوبري عليهم، مشهد قدمه الفنان (عُمر الشريف) في فيلم.(في بيتنا رَجل) للمُخرج (هنري بركات).

صدرتْ الأوامر بفتح الكوبري من الإنجليزي رسل باشا حكمدار القاهرة، لكن ما علاقة كل ذلك بكَفر غطاطي؟!

رسل باشا الإنجليزي الذي أمر بضرب المتظاهرين كانت كَفر غطاطي هي الوسية التي يملكها، جزء من أرض رسل باشا ما زالت موجودة بشجرها القديم، 14 فدانًا على مدخل القرية تتبع مركز البحوث الزراعية، وبداخلها استراحة تراثية لرسل باشا يستعملها المركز كمكتب للموظفين.

كانت كَفر غطاطي حتى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي قرية مصرية خالصة. مع ظهور ما عُرف بـ(الصحوة الإسلامية) في نهاية السبعينيات بدأت الملامح تتغير.

بدأ شباب القرية ممن توفَّرتْ لهم فرص الخروج منها لتحصيل العِلم في الجامعة بإدخال أفكار الجماعات التي تبنَّت الصحوة الإسلامية؛ مجموعات متدينة تعمل على إعادة الخلافة العثمانية التي اندثرت عام 1924م.

وقد بدأت آثارها تظهر على سطح قريتي، أفكار جماعات التبليغ والدعوة، والجمعية الشرعية، والسَلفية، وجماعة الإخوان، والجهاد، والجماعة الإسلامية. ويبدو أنَّ تلك الجماعات لم تَكنْ بنفس قوة

انتشار الإخوان.

***

كَفر غطاطي أقرب لتكوين المدن؛ قديمًا كانت جزء من الصحراء المحيطة بمنطقة الأهرامات، لكنها على الجانب الآخر قريبة لمنطقة زراعية تحدها من الشمال، تُسمى (كرداسة)، فأنت في أحد جوانبها ترى صحراء الأهرامات وألق المدينة السياحية، وعلى الجانب الآخر ترى الزرع والنخيل.

بمرور الوقت انفصلت عن صحراء الأهرامات بفعل التمدد العمراني وإنشاء الطرق، وظلَّتْ القرية.

يبدو أنَّ ذلك الانفصال كان كبيرًا لدرجة أنَّ قريتي انفصلتْ بالكُلية عن العالَم، هي أقرب للدائرة المغلقة، ربما مرَّ أحدهم بسيارته على الإسفلت المجاور لها دون أن يدري أن خلف ذلك الزرع بشر، محال وأسواق، أنَّ هناك حياة.

ربما تلك العُزلة أكسبتها نوعًا من الهدوء، فلا تجد طُرقًا للمارة تخترق القرية، ولا يسكنها غرباء إلَّا قليلًا، جميعها عائلات سكنتها منذ عقود، والغرباء يعرفهم الجميع، حتى اليوم يُطلق على أمثالي في تلك القرية لفظة الغرباء، فهناك سكان أصليون، وآخرون غرباء وافدون.

ورغم أنني من مواليد القرية، إلَّا أنني أُعد غريبًا بينهم، ليس لي شجرة عائلة ممتدة في جذورها. دائمًا يُنظَر للغريب نظرة ريبة، فالغريب في نظر أهل القرية لا يملك شيخًا يرجعون إليه في وقت الشدائد، الغريب مكشوف العين، قد يرتكب الخطأ دون خجل. كلما حدثتْ كارثة في القرية تسارع أهلها باتهام الغريب.

منذ بضعة أعوام ظهرتْ عصابة لسرقة أهل القرية، كان أمرًا مستحدثًا على ثقافتهم، في البداية ظنوا أنها حالة فردية لشخص ذو حاجة، إلَّا أنَّ السرقة تجددتْ، قال أهل القرية من المؤكد أنه أحد الوافدين. الغرباء فقط هم من يسرقون، عائلات القرية تربطهم صلة قرابة، لن يفعل ذلك ابنٌ حقيقيٌ لهم.

أنشأ شباب القرية فِرقًا منهم تسهر ليلًا لتأمينها وحماية أهلها، ليسوا في حاجة لقواتٍ من الشرطة، القرية تحمي نفسها، وتلفظ أولًا بأول خَبثها.

بعد بضعة أيام سقط اللصوص في أيدي الشباب، كانت المفاجأة، أنهم أبناء لأكبر عائلة في القرية، تم التعتيم على المسألة، ونسي الجميع، خشيتْ عائلات القرية أن تفقد تميُّزها، حتى أنهم لم يتجرؤوا على إلقاء أبنائهم في السجون.

أُطلق سراح اللصوص، وبعد مدة تناسى أهل القرية، وعادوا لسب الوافدين في كل سيئة يمرون بها.

سُميت القرية قديمًا بجُحر الديب؛ لأنها كانت مأوى للسباع والذئاب، لكن الذي لا يعلمه سوى الشيوخ من أهلها أنَّ أول من قطنها كان أحد الفلاحين المهاجرين إليها، قطنها هو وأسرته ولم يخشَ سباعها، وبمرور الوقت خشيته السباع ورحلتْ إلى جبال أبو رواش ومنطقة كرداسة المجاورتين لمنطقة الأهرامات.

بدأت العائلات من القرى المجاورة ومن منطقة الأهرامات يرسلون أبناءهم لتعمير جُحر الديب، ومن سخرية القَدر أنَّ عائلات قريتي جميعهم في الأصل وافدون.

نشأتْ عائلات المدينة على أخلاقها، ونشأتْ عائلات القرية على أخلاقها، وبفعل التزاوج بين العائلات خرجتْ لنا أجيال تحمل الثقافتين.

دائمًا ما كان يحدث صراع ثقافات، أو تناقض غرائبي، فأنت تجد شاب يتزوج فتاة ولا يراها سوى ليلة زفافهما، وترى الأهل يقفون أسفل شُرفته ينتظرون منديل الشرف الملطخ بدماء عذرية ابنتهم، وعلى الجانب الآخر تجد الشاب الجامعي الذي يُقيم زفافه في أحد الفنادق، ويذهب بزوجته لقضاء شهر العسل في واحدة من المناطق الساحلية.

قد تجد من يعترف بالحُب، وتجد من يراه خطيئة، ترى الفلاح والعامل، وترى التاجر وصاحب الشركة، إلَّا أنهم جميعًا يشتركون في أمرٍ واحدٍ، أنهم هم فقط مَن يعرفون أن هناك مكانًا اسمه كَفر غطاطي.

ربما لأنه لا أحد يعرفها فقد تمددت فيها أذرع الجماعات الدينية، فالحكومات التي تعاقبتْ على مصر، وكانت تقتل أي محاولة لصعود تلك الجماعات، لم تَكنْ تعلم أن هناك قرية اسمها كَفر غطاطي، أنشأ فيها أبناء تلك الجماعات جمهورية إسلامية منفردة بذاتها.

يبدو أنَّ والدي لم يَكنْ يعلم هو أيضًا، فهو لم يَكنْ شيخًا ولم يُطلقْ لحيته إلَّا بعد أن سكنها.

الأغرب من ذلك أنَّ القرية التي لم يعرفها أحد قد عرفها أبي، وقرر أن يموت فيها بعد أن يترك أسرة بأكملها على تلك الأرض.

***

لم تقتنعْ أمي بفكرة أن يلتحق وليدها بمدرسة؛ في قريتها بمحافظة بني سويف الجميع يعمل فور أن يَقدر على ذلك دون الحاجة إلى تلك

الشهادة.

كانت على يقين أن العلم يُقتنص من الحياة بكثرة الخبرات التي نمر بها، أما ما يُسطر في الأوراق فهو مجرد حِبر على ورق، أموال تُلقى على الأرض لا طائل منها.

غير أنَّ أبي كان يُخالفها الرأي، شهادة محو الأُمية التي مهدت الطريق إلى الوظيفة الحكومية جعلته يُصارع كي يحصل وليده على الشهادة العليا، فالمسألة لديه أنه كلما عَلتْ درجة الشهادة التي يحملها أبناءه تمكنوا من الحصول على وظيفة حكومية أفضل.

لم يَكنْ أبي يُملَّ من أن يحكي عن مدير الهيئة الحاصل على دبلوم تجارة، يقول لي: «**إنت على كده لو كملت الجامعة هتبقى وزير**».

كان حلًا وسطًا توصل إليه كلاهما، أن نذهب إلى المدرسة في أوقات الدراسة، وأن نعمل في الإجازة الصيفية، التزم إخوتي بما توصل إليه والدينا، أما أنا فلا.

في البداية كنتُ أهرب من العمل في الصيف متعللًا بالذهاب إلى كُتَّاب القرية لحفظ القرآن، وكان أبي يُحب ذلك، وعجزتْ أمي أن تفرض العمل على ولدها.

كانت هناك محاولات عندما كنتُ في الصف الخامس الابتدائي، لكنَّها باءت بالفشل، فقد عملتُ في ورشةٍ للنجارة، تركتها بعد بضعة أيام. هناك محاولة أُخرى في الصف الأول الثانوي حينما عملتُ بأحد المطاعم الشعبية.

جميع جيراني في القرية كانوا يعملون في إجازة الصيف، ومعظمهم

ترك الدراسة بعد أن أنهى الشهادة الابتدائية وتفرغ للعمل بإحدى الورش.

هناك من جاهد نفسه حتى أنهى تعليمه الإعدادي ومن ثَم ترك الدراسة وتوجه للعمل، أما التعليم الثانوي فكان نهاية المطاف وفي القرية يُعد خارجًا عن السرب مَن يُكمل تعليمه الجامعي، فأن تصير صاحب صنعة أفضل من أن تحصل على شهادة.

إلَّا أنَّ أبي لم يَكنْ يُدرك ذلك حينها، كان كل تفكيره مُنْصب علي الميري وترابه، أما أمي على الجانب الآخر فقد كانت تعمل جاهدةً على أن أصير صبيًا بإحدى ورش القرية حتى أملك سببًا يعينني على الحياة.

في مرحلة متقدمة ضاقت عليهم المسألة، لا يملكون القَدْر الكافي من المال لأن ينفقوا على تعليم ثلاثة من الأبناء، اتفقا على أن أترك التعليم بعدما أنهيت المرحلة الثانوية، لكنني جاهدتهم واخترت العمل في الإجازة الصيفية طواعيةً على أمل أن أستمر في دراستي.

***

طفل

كنتُ ألعبُ أمام منزلنا عندما أقبل أحد الأطفال يكبرني سنًا وسرق لعبتي، كنتُ في السادسة من عمري، لم أفكرْ أن أُحرك ساكنًا، رأيته يأخذها ويبتعد دون مقاومة مني، هل دبَّ الخوف في نفسي؟ أم أنَّ الطفل الصغير رأى أنه لا حيلة له فاستسلم للمسألة؟

في المساء أقبل والدي من عمله وفور أن أخبرته أمي أنَّ اللعبة التي أحضرها حديثًا قد سُرقت مني قام بعمل المعتاد في مثل تلك المسائل لسنواتٍ قادمة، أمسك بعصا وهوى عليَّ ببضع ضرباتٍ متتالية لا يتناسب قدر ألمها مع سني.

غضب أبي لأنني لم أُحافظْ على اللعبة، كنتُ أستحق تلك الضربات، لكن في مسائل أخرى؛ في تلك الليلة وأنا في السابعة من عمري عندما أمسكتْ بي جارتنا صاحبة دكان للفاكهة وأنا أسرق ثمرة برتقال أمام عينيها غير مكترثٍ إن كانت تراني أم لا، أرسلتني إلى والدي الذي رأى أنَّ الأمر كبير يستحق ضربًا مُبرحًا.

عرفتُ عندما كبرت أنَّ حكم السرقة في الدين قطع اليد، أراد والدي أن يُعطيني درسًا يحميني من قطع يدي عندما أكبر.

أصبحتُ لا أحصي تلك المرات التي ضربني فيها والدي الشيخ، كان الضرب هو الترجمة الوحيدة لأي تصرف صَدَر مني يراه الآخر أنه أحمق.

وأنا في الثامنة من عمري سرقتُ من والدتي ريال فضة وذهبتُ به إلى البقال واشتريتُ قطعة حلوى، ثم رجعتُ إلى المنزل دون الحصول على بقيَّة الرِيال، صاحب المحل يعرف منزلنا، أحضر باقي الريال إلى البيت.

عندما علمَتْ أمي خبر سرقة الريال توعدتني بعلقة ساخنة عندما يحضر أبي في المساء، خشيَتْ أمي أن أصير لصًا عندما أكبر من تعدد سرقاتي.

العجيب في كل تلك المرات أنني لا أذكر لحظة الضرب نفسها، أتذكر ما قبل الضرب وبعده بوضوح وكأنه بالأمس القريب، لكنني أشعر أنَّ لحظة الضرب ذاتها كأنها لم تَكنْ، عِلمًا بأنني أذكر ألمها.

كلما تذكرتُ تلك اللحظات تحسستُ جسدي، كانت لحظات الضرب تلك تجعلني أكثر حِرصًا لتجنب دواعيه، فأنا أولًا: يجب ألَّا أسرق أبدًا، ثانيًا: إذا سُرق مني شيئًا يجب ألَّا أحكي، مِن الأفضل عندما أُسرَق أن أصمت، لأنَّ الكلام لن يأتي بحقي، بل سيزيد المسألة سوء.

وأنا في التاسعة من عمري أردت أن أُجرب النار، كانت أمي دائمًا تُخبرني أنَّ مَن يسرق سيدخل النار التي أعدها الرَّب للعُصاة خلْف تلك السماء، وكانت تُشير إلى موقد النار وتقول: «**النار اللي عند ربنا بتلسع زي النار دي**».

أخذتُ عود ثقاب دون عِلم أمي وبحثتُ عن مكانٍ أختبئ فيه لأقوم بتلك التجربة فاستعصت عليّ المسألة، فنحن نقطن في غرفةٍ صغيرة، تفتق الذهن عن وسيلة لإتيان ذلك.

قررتُ أن أختبئ أسفل أريكة، هكذا لن يراني أحد، زحفتُ أسفل الأريكة لأجد بعض المخلفات لم تَكنْ أمي قد وجدَت لها مكانًا بعد، قررتُ أن أستخدم تلك المخلفات لأرى كيف هي النار التي دائمًا ما تحذرني منها أمي ويضربني أبي بسببها؟

أشعلتُ عود الثقاب وألقيته على المخلفات، هالني منظر النار عندما

تزايدتْ ألسنتها وضربني الخوف من أن تعلم أمي، ستُخبر أبي ومن ثَم أحصل على وصلة أخرى من الضرب.

خرجتُ من أسفل الأريكة مسرعًا، صرختُ، سمعتْ أمي صراخي، كانت تجلس أمام الغرفة في محاولةٍ لاستجداء بعض الهواء الذي لا يجد طريقه إلى داخل غرفتنا.

دخلتْ مسرعة وفي لحظات أنقذتْ المكان من خطرٍ محدقٍ. لكنَّها في تلك المَرة لم تنتظرْ أبي في المساء، ضربتني.

عندما حضر أبي أخبرته كي يُكمل المسيرة التي بدأتها في الصباح. صرخ قائلًا: «**عايز تموتنا يابن الكلب**» لكنني أذكر تلك المَرة موقف الضرب، أبي كان قوي البنيان، لو كان يعيش في زمن الحرافيش لكان فِتوة هو أيضًا، كنتُ أشعر في أحيانٍ كثيرة أنه لا يمارس تلك الفتوَنة إلَّا علىّ أنا وإخوتي.

أمسك أبي بسلك كهرباء ونزل به على جسدي كما ينزل السوط من الجلاد على جسد سجينه، وأتبع الجلدة جلدات، وظل يَضرب حتى أُنهكت قواه، صِرت بعد ذلك أخشى السرقة، وأخشى النار، وأخشى الكلام فيما يُغضب الناس.

***

في يومي الأول بمدرسة القرية دخل علينا أستاذ الفصل وهو يحمل عصا غليظة، كان بمقدورها أن تصيبنا جميعًا بشللٍ مؤقت، حتى ولو لَم يَكنْ الأستاذ موجودًا، وبكيت حالي، هل أُضرب هنا أيضًا؟

ضربني أبي فتعلمتُ ألَّا أسرق، وأن أخشى النار، وأن أتجنب

الاختلاط بالناس، فأحيانًا يكونون سببًا في الضرب، إذًا لماذا سيضربني الأستاذ طالما تعلمتُ الدرس؟

عندما التحقت بالمدرسة الإعدادية كان هناك أستاذ شديد الجانب، شرس الطباع، كان يملك عصا أغلظ، كان يسميها الحاجّة، ينادِي قائلًا: «**هات الحاجّة ياض عشان أربي ولاد الكلب**».

في أوقاتٍ عدة كان الأستاذ يخرج من الفصل ويترك لنا الحاجّة على مكتبه أمامنا، كنا نصمت خوفًا من أن تخبره الحاجّة أنَّ أحدنا قد أخطأ.

أيضًا وجدتُ من يضربني من أطفال المدرسة، كنتُ دائمًا أتجنب الصِدَام بأحدهم، وكنتُ أحرِص ألَّا أغضِب مَن هم أقوى مني، وحتى من هم أضعف.

أحيانًا كنتُ أقع فريسةً لمن يجد في نفسه الرغبة في فرض السيطرة على الضعفاء، ربما ليعوض النقص في نفسه من كثرة ما يُضرب هو أيضًا.

كنا نعيش داخل القرية في حلقةٍ مُفرغةٍ، جميعنا يضرب جميعنا، كلما كنتَ أقوى سنحت لك الفرصة لأن تضرب عدداً أكثر، الوحيد الذي لم أره يُضرب من أحدهم هو أبي.

كان أبي قويًا مثل هؤلاء الذين نراهم في الأفلام، يهابه الجميع ويُقَدرون قوته، عندما قرر أبي أن يبني لنا بيتًا في كَفر غطاطي ذهب بنفسه مع بعض أبناء عمومته ليبني البيت.

كانت هناك نخلة كبيرة تركها أحدهم في الأرض محل البناء، يجب أن

يزيحوها من الطريق حتى يبدؤوا العمل.

خمسة رجال أعجزتهم النخلة، ضحك أبي وطلب منهم الابتعاد، أحنى ظَهره ومد يديه حول النخلة وقال صارخًا: «**يا قوي**»، فوجئ الجميع بأبي يرفع تلك النخلة ويمشى بها أمامهم.

في العام 1987م عمل أبي سائقًا في هيئة النقل العام، لم يَكنْ قد مَرَّ عليه في هذا العمل سوى سنتين، فوجئ في إحدى المرات بصراخ داخل الأتوبيس، أوقفه فوجد الركاب يفرون إما من الباب أو من النوافذ.

انتهى به المطاف منفردًا في مواجهة خمسة لصوص؛ كانوا يسرقون أحد الركاب، طلبوا من أبي أن يتركهم لحالهم وأشهروا أسلحتهم البيضاء في وجهه.

هؤلاء التعساء يجهلون مع مَن يعبثون، وجد أبي أمامه قطعة من الحديد أمسك بها وأخذ يطيح فيهم وهم يعجزون عن إيقافه، هبطوا من الأتوبيس فلحقهم، إلَّا أنهم تكاثروا عليه وجاءته طعنة مطواة من أحدهم وانبثق الدم منه ليُخفي معالمه.

هاب الرجال شكل الدم وظنوا أنَّ أبي قُتل فتركوه وهربوا. كلما حكى والدي ذاك الموقف تعجب من أهل المدينة الذين تركوه يُصارع وحيدًا من أجلهم، قال: «**لو كنتُ في القرية لهبَّ الجميع لنجدتي**».

المَرة الأخيرة التي ضرب فيها أبي أحدهم كانت قبل وفاته ببضعة أشهر، كان المرض قد أحاط بوالدي الشيخ، إلَّا أنه في كل مَرة يذهب فيها إلى المستشفى الحكومي يجلس هو والمرضى بالساعات لا يجدون من يعيرهم انتباهه.

في تلك المَرة خرج والدي الشيخ عن شعوره، هاج كالثور وأعمل قوته في المستشفى وحطم جميع ما طالته يداه، ربما يشعر الطبيب أنَّ خلف باب عيادته يوجد عشرات المرضى في انتظاره أو الموت.

مات أبي بعد تلك الحادثة ببضعة أشهر، أخبرني أحد الممرضين أنَّ أبي قبل وفاته بأيام قام من على سريره في المستشفى كأنشط ما يكون وقال لزملائه في الغرفة: «**حد عايز ياكل كُشري**».

أحضر أبي أطباق الكُشري والفول السوداني واللِب الأبيض وكانت سهرة حتى الصباح، بعدها بأيام مات.

والدي الشيخ كان لا يهاب الموت، بل كان يُصارعه، في أحيانٍ كثيرة كان يتعمد أن يُعانده، مثلما قرر أن يأكل طبق الكُشري وألَّا يحرم نفسه أمرًا حتى لو كان نتيجة ذلك الموت، طالما أنه ميت ميت إذًا لن يحرم نفسه.

***

سيرة

دائمًا ما أعود إلى تلك الذكريات، متخطيًا حدود الزمن؛ أبحث في داخلي عن تراتيب الماضي التي جعلَتْ مني ما أنا عليه الآن.

في أثناء عودتي تستوقفني حالة شعرتُ بألمها كأنها كانت بالأمس القريب، ربما التوقف عند ذلك اليوم من العام 1995م هو البداية لرحلةٍ استمرتْ لسنواتٍ.

رحلة لا تزال أثارها تُطاردني حتى بعد أن أدركتُ باب الخروج. أصوات زملائي في الصف تستعيدني، في الموعد المحدد لمسابقة تقيمها مدرستي الابتدائية بين فصول المتفوقين.

جميع المتسابقين تم اختيارهم بالقرعة بين طلاب عِدة لتقارب مستواهم، أما أنا فأحجز مقعدي مسبقًا في أية مسابقة، دون قرعة مع أحد.

القائم على مجموعتنا أستاذ التربية الدينية، لم يَكنْ ليّن الجانب، كنا نهابه حتى ونحن في منازلنا بعد نهاية اليوم الدراسي.

في يوم المسابقة أرسل لي مدرس التربية الدينية نظرة فخر وكأني من سيأتي بالنصر العاجل؛ كنتُ لا أُبارَى في حفظ القرآن والأحاديث النبوية، وكان واثقًا من ضعف المنافسين في ذلك الجانب، فهو مدرس الدِين وأدرَى بحال طلابه، غير أن تلك الآمال التي وُضعتْ عليّ أثقلت كاهلي.

زادتْ الرعشات مع بداية المسابقة، وزاد تأملي في الجدران من

حولي، وكأني أناجيها أن ألهميني الثبات. وزادتْ خيالاتي، فالنصر قادم، وأنا من سآتي به.

أنظر لمُخيلتي وهي تُنصّبني على عرش المتفوقين في المدرسة، والجميع ينظر بغبطة لهذا الذي يتمنى كل منهم أن يحل مكانه.

زادتْ تخيلاتي، ومعها تلاشتْ رعشاتي، أو تناسيتها، لم أعدْ أتأمل في الجدران؛ ذلك أنني سرحتُ في عالمي بعيدًا عن الجميع.

فجأة شعرت بلكزة في كتفي جعلتني أقفز من مكاني. رأيت أستاذ الدِين وهو يُعيد السؤال الذي طُرح عليّ، كنتُ نسيت الحضور وتركتهم لعالَم آخر صنعتْه مُخيلتي.

كانت الإجابة بِضع آيات من القرآن كنتُ أحفظها جيدًا، بل كنتُ أحفظ السورة كلها. لا أعلم كيف نطقت بآيات أخرى غير المُرادة.

في بادئ الأمر، ما لبثتُ أن عُدت وقرأت الآيات المقصودة، لكن كان قد فات الأوان. فهناك وقت للإجابة، ويجب ألَّا أُخطئ في تحديد المُراد من أول لحظة.

تمسك المنافس بموقفه، وكان لأستاذ الدِين موقف لن ولم أنسه، نظرتُ إليه بعين المترقب، فوجدته وقد رفع رأسه للسماء وقد علتْ وجهه علامات السُخط، وفي ثوانٍ معدودة لم يلحظْ وقعها غيري أنزل رأسه وقد أجهز عليّ ببصقه لا صوت ولا ريق لها.

بصقه لم يرها ولا يشعر بها غيري، وبكيت، ومن هُنا بدأتْ رحلتي مع البكاء، الذي لم أجدْ له بديلًا يُخرجني من هذا العالَم الضيق بأفكاره ومعتقداته.

ومن هُنا أيضًا تلبستني الرعشة التي جعلتني لا أقوى على المواجهة في أي سباق، ولا على التقدم للقيادة في أي تجمع، وصِرت أعشق أن أكون مجرد تابع، وأكره أن أكون يومًا متبوعًا، ذلك أني أخشى من بصقه مماثلة ممن قد أُضيعهم.

ومن هُنا أيضًا زاد عشقي للخيال، فصِرت أهرب إليه كثيرًا كلما ضاقت بي الأحوال، وضاقت بي عِبارات الدنيا وأفكار قاطنيها.

كانت سقطة أفقدتني توازني، زاد ألمي أنني وحدي مَن تحملتُ آلام الهزيمة. مرَّ الأمر على زملائي جميعهم وكأن شيئًا لم يَكنْ، حتى أستاذي الذي رماني ببصقته نسي هو الآخر، بيد أني لم أنسْ.

***

في شهر رمضان، من العام 1996م، أُقيم لقاء كان ينعقد يوميًا في مسجد قريتي بعد صلاة العَصر، يتبارى فيه الأقران ويتسابقون في حفظ القرآن والحديث وقصص الصحابة.

أطفال يقاربوني العُمر. كان إخوتي من المترددين على هذا اللقاء طمعًا في الجائزة اليومية، كانوا يعجزون عن الحصول عليها والأيام تمر، ويقترب معها انتهاء الشهر وضياع الأمل.

أخي الأكبر طلب مني أن أُصاحبهم في أحد تلك الأيام الرمضانية، كان يعلم جيدًا أنني أقدر على الإتيان بالجائزة، ومَثَّل الأمر تحديًا لإخوتي.

لا أزال أخشى المواجهة، من بصقه أخرى، أضيق بتلك الرعشات التي تعتريني، وهذا الخيال الحالِم الذي يأخذني من عالمي.

لكن بعد طول إلحاح ذهبت، قلتُ أذهبُ لأتخلص من هذا الإصرار،

وليس من الحتمي أن أشترك في أية مسابقة، لأجلس بعيدًا عنهم أُتابعهم وهم يتبارون.

مع أول قدم وضعتها داخل المسجد شعرتُ بهذا الذي اخترقني، ولم أجدْ له تفسيرًا حتى الآن. الغريب أنَّ ذلك الإحساس يخترقني في كل مرةٍ أعود فيها للمسجد!

يجلسون في شكلٍ منظّمٍ ودائري، يتوسط الدائرة شاب في العِقد الثالث من عمره، تعجبتُ كيف يتأتى لهذا الشاب أن يتحكم في هذا العدد من الأطفال؟!

وكيف يُنظمهم في دائرة لا يخرج عنها أحد؟! هل الشاب هو من يمتلك تلك القدرة، أم أنه إحساس الإجلال الذي يُغلف الدِين، ويُعطى كل ما له علاقة بالأديان قدسية تجعلنا نذعن دون أن ندري لماذا؟

أخذتُ مكاني في الدائرة، كنتُ على يسار الشيخ، اعتقدتُ أنَّ الأمر يبدأ وينتهي بمسابقة، إلَّا أنَّ ما حدث كان مختلفًا.

بدأ الأمر بآياتٍ من القرآن نقرأها بشكل متتابع، كل منا يقرأ بضع آيات ثم يترك القراءة لمن بجواره، ثم أخذ الشاب يقص علينا بعض القصص عن أصحاب هذا النبي الذي ظهر بمكة، وكيف أنهم تحملوا الصِعاب من أجل نبيهم ودينهم الجديد، وأنه ما من أحدٍ منهم بخل بماله أو نفسه في سبيل إعلاء هذا الدِين.

كان الشيخ يتحدث وكأنه يُحادث نفسه، لا أظن أنَّ أحدهم يَعي ما يُقال، أو أنَّ الحاضرين ما جاءوا لأمرٍ غير الجائزة والمسابقة، سوى أنني أُعجبت بما قال.

انتهى الشيخ من أذكاره وقصصه وقرآنه، وأوشكنا على الذهاب، قلتُ لنفسي: أين المسابقة؟ لكن وقبل أن أُعيد السؤال تابعني الشاب بإعلان المسابقة وكأنه سمع ذاك الذي دار في مُخيلتي.

أطلق الشيخ السؤال، وكنتُ قد عاهدتُ نفسي أن ألتزم الصمت، لن أشترك، أو هكذا أوهمتُ نفسي، فلا تزال نظرة مدرس الدِين وبصقته تعلقان بذاكرتي، وها هي الرعشة بدأت تدب في أطرافي، ودقات قلبي تتزايد.

حاول أخي دفعي للإجابة إلَّا أني أبيت. كنتُ أُتابع الشيخ وهو يُقلب ناظريه بين الأطفال متلمسًا مَن سيُعطي الفرصة للإجابة، كنتُ أظن أنني فقط من أُتابعهم بشغفٍ.

لكن أحدهم جلس بجوار الشيخ في بداية اللقاء يُتابعنا، ظلَّ صامتًا طوال الجلسة، وكأنه حضر خصيصًا لينتقي شيئًا ما.

كان يُقلب عينيه فينا طوال الجلسة، وبين الحين والحين كان يُعلق عينيه معي قليلًا. لاحظته وهو يلكز الشيخ موجهًا بصره ناحيتي، معلمًا إياه أنني صاحب الحق في الإجابة.

لاحظتُ تلك اللَّفتة السريعة التي لم يلحظها أحد سواي. أشار الشيخ إليَّ رغم أني لم أُشاركْ الأطفال في رفع يدي طالبًا الإذن بالإجابة. كان السؤال غير ذي صعوبة فأجبتُ عنه، وكان ذلك إذنًا بالحصول على الجائزة.

أثارني هذا التشابه في حياة من يقصُّون قصصهم وحياتي، فكلنا مضطهدون من هذا المجتمع الجاهل، شعرتُ بالقوة وقد دَبت في أوصالي من جديد، تركتني الرعشة وخَفَّت ضربات القلب، قررتُ حينها ألَّا

أتركهم، إلَّا أنني علمتُ بعد سنوات كثيرة، أنهم هم من قرروا ألَّا يتركوني.

***

صاحِب تلك النظرة أصبح المسئول عني لثلاث سنوات، لم يُبدِ أهلي أدنى اعتراض على هذا الاهتمام الذي أولاني إياه، يكفي أنه رجل متدين ويتَّق الله من وجهة نظرهم كي يأمنوا على طفلهم بين يديه.

أدركتُ أنَّ الدائرة التي انتظمت في المسجد تتلاشى فور أن نخرج مع تلاشي قدسية المكان، فالمسلِم في المسجد يكون في حال غير التي يكون فيها خارجه.

ولهذا لم يتبقَ سواي أنا وبضعة أطفال تم اصطفاؤنا لتستمر الدائرة خارج المسجد، كنا نجتمع في بيت الشيخ بشكلٍ دوري مَرة كل أسبوع، تَجمُع صغير يسميه شيخي (الأُسرة)، نردد فيه الأذكار، ونؤدي الصلوات.

ذلك الإحساس الذي يختلج الصَدر وأنت منتصب القامة في صلاة الفَجر تستمع لتراتيل القرآن بشغف.

أن تجد هذا الطبيب الذي يغسلك من أدرانك في اليوم خمس مرات، أن تستند إلى ذاك القوي في الملمات، أن تؤمن بتلك الغيبيات التي تجعلك على يقين أن فقر الدنيا وصعوبة العيش إن اصطحبتْ برضا النفس فهناك خلف الحجب جنة ونعيم ورضا ربٌ كريم.

كنا في عالَم غير العالَم، نحيا إحساسًا اندثر خارج تلك الدائرة، أو هكذا صُوِر الأمر لنا، لهذا كنتُ أخشى أن أُطرد منها، أو حتى أَنظر خارجها.

انتهيتُ من الصلاة وخرجتُ من المسجد أنتظر الشيخ وأصدقاء الأُسرة أو (إخوتي في الله)، كما نطلق على أنفسنا داخل الدائرة.

فدائمًا ما يسبق التعريف بالشخص كلمة أخوك في الله فلان، حتى يُصبح بديلًا عن أخيك في الحقيقة، ولهذا نُسمَى أُسرة، فهي الأُسرة المنتقاة البديلة عن تلك التي نحياها خارج الدائرة.

أثناء انتظاري وجدتُ أحدهم يفترش الأرض بالكتب والأشرطة الدينية أمام المسجد، كنتُ أهوى القراءة فجذبني منظر الكتب.

أدرتُ ناظري في تلك العناوين المعروضة للبيع، حتى سقطَتْ عيناي على كُتيب صغير للأطفال بعنوان (سيرة الإمام الشهيد).

اقتنيته بشغفٍ، وذهبتُ لشيخي مسرعًا إثر رؤيته لِأُطلِعه على الكِتاب الذي يحوى سيرة الإمام الأول لتلك الجماعة. اعتقدتُ خطأ أنه سيفرح بتلميذه الذي يحمل سيرة الإمام، غير أن ما حدث كان العكس تمامًا.

غضب الشيخ وعنَّفني، وطلب مني أن أعيده وألَّا أقرأ تلك النوعية من الكتب. كان يتحدث بغِلظةٍ وكأن بينه وبين الإمام عداوة مُسبقة.

بيد أنَّ شيخي لم يُردْ لطفلٍ أن يعلم بمسألة الجماعة الآن؛ حتى لا يكون سببًا في وقوع خطر عليه، وأيضًا حتى لا يُثرثر هذا الطفل بكلماتٍ أمام أحدهم قد تؤذي الشيخ، فقد ضيَّقَتْ عليهم الدولة كل سُبل الدعوة.

تركتُ شيخي على اعتبار أني ذاهبٌ لأُعيد الكِتاب للبائع، إلَّا أنني لم أمتثلْ لكلماته. احتفظتُ به على غير عِلم الشيخ، ومنذ تلك اللحظة

أضحتْ لدي حياتي السِرية التي تسير بالتوازي مع حياتي العلنية.

فأنا داخل الدائرة إنسان، وخارج الدائرة إنسان آخر، يحيا عالَمه السِري الذي يضم كل الممنوعات.

كنتُ متمردًا لا أحب الانصياع للأوامر، وفي نفس الوقت كنتُ أعشق الحالة التي تعتريني داخل الدائرة، تلك الهالة النورانية التي تسمو بنا وتجعلنا ننظر للعالَم من أعلى.

عندما قرأتُ الكِتاب، وأدركتُ كم كان المؤسس الأول للجماعة نبيلًا وشهمًا، وكيف أنه مات في سبيل أن تبقَى الجماعة، عاد لذهني نفس السؤال مرةً أخرى: لماذا غضب مني الشيخ وأنا أحمل بين يدي سِيرة المؤسس الأول لتلك الجماعة التي تُنظِم دوائرنا؟!

***

الطريد

كنتُ أعجب من هذا الشيخ الذي لا يَكلّ ولا يَملّ، أسأل نفسي دومًا ألا ينام؟! شاب في منتصف العِقد الثالث من عمره، ورغم تلك السن الصغيرة كان زوجًا وأبًا لطفلة في السادسة من عُمرها أي أنه تزوج قبل أن يَبلغ العشرين.

تعَوَّد الجيران على هذا الطارق الذي يأتيني فَجرًا، يُرسل دقاته المميزة على الباب فيخرج أبي ليُخبره أني نائم، فيطلب منه إيقاظي وأبي يُنفذ أمره بكل مرونة.

أخرج عليه فأتحجَّج بأية حجة قد تمكنني من الهروب من هذا الوِرد اليومي، لكن دائمًا ما تفشل محاولاتي.

حدث أن خرجت عليه مرة لا أرتدي سوى بنطال دون شيء يستر الجزء العلوي من جسدي، أخبرته بأنه لا توجد ملابس نظيفة أرتديها لأذهب معه لأداء صلاة الفَجر في المسجد. فما كان منه إلَّا أن استوقف أحد الجيران وهو في طريقه للمسجد وطلب منه إحضار شيء من منزله أرتديه للذهاب معهم.

كنتُ أظنه في أوقاتٍ عِدة مصابًا بمس من الجنون، وفي أوقاتٍ أخرى كنتُ أحسِده على مثابرته وصبره، كانت له إرادة غريبة، ولكنَّها لم تَكُنْ تتحرك إلَّا لأجل الجماعة ودعوتها.

هو ذلك الشيخ الذي رمقني بعين الاهتمام في المسجد، إنه شيخي الذي دخلتُ على يديه تلك الدائرة.

***

لم يَكنْ شيخًا بالمعنى الأزهري، هو شخص ملتزم هذا الالتزام العادي الذي يُميز مجتمعاتنا المسلِمة، حاصل على تعليم متوسط، يقرأ كثيرًا في العلوم الفقهية والتاريخ الإسلامي.

إلَّا أننا في مجتمعاتنا الشرقية لا نبخل بإضفاء ألقاب مثل: الشيخ فلان ومولانا فلان على كل من ظهرتْ عليه أدنى بوادر الالتزام.

لازلتُ أجد في قريتي من يناديني باسمي مسبوقًا بلقب الشيخ أو مولانا، علمًا بأنه وطبقًا لتعاليم دين الجماعة التي انتميتُ لها من المفترض أن أُدرَج تحت لقب (رجل عاصٍ).

غير أنهم ألبسوني اللقب، وليس من المفترض لأحدٍ أن ينزعه عني. حتى اللحظة هناك أُناس يستفتوني في أمور دينهم ودنياهم، أحاول الخروج من هذا المأزق بأقل الخسائر، أخشى أن أُفسد عليهم دينهم فأتحول من عاصٍ إلى مرتدٍ.

لكن شيخي حقًا كان يستحق هذا اللقب؛ كنتُ لا أراه إلَّا في المسجد، أو ذاهبًا للمسجد، أو عائدًا من المسجد. كان يَهبْ حياته كلها لخدمة دينه المتمثل في خدمة الجماعة.

لم أستطعْ أن أُحدد حينها هل يعاملني شيخي معاملةً خاصةً، أم أنه هكذا مع كل الأطفال؟ لكن وهل يمر على جميع الأطفال في منازلهم ليأخذهم لأداء صلاة الفَجر في المسجد؟ هل يلتقي كل الأطفال في بيته في كل وقت وفي أي وقت؟

كان لا يملّ ولا يؤجل عمل اللحظة إلى اللحظة التي تليها. كنا نبدأ يومنا بعد صلاة الفَجر، نذهب للمسجد ونصلي، ومن ثَم نلبث قليلًا في المسجد نقرأ القرآن وبعض الأذكار والأدعية.

ثم يُسأل كُلًا منا عن تأدية بعض التكليفات التي تكون قد طُلبت منه خلال الأسبوع، مثل إقامة الصلوات، إخراج بعض الصدقات، حُسن معاملة الأب والأم، صلوات السُنن، الأدعية والأذكار.

كانت تُكتب تلك الأمور في ورقة على شكل مربعات، ونُقيم كل عمل في الخانة التي تقابله بوضع علامات تفيد بالإتيان بالعمل أو عدم الإتيان به. ربما هذا الوِرد تسبب في كُرهي للجداول والنظام وترتيب يومي، ذلك أنني دائمًا ما كنتُ أعجز عن القيام بكل ما فيه.

بالإضافة إلى أنني طفلًا في الحادية عشر من عمره من المفترض أن يكون مع الأطفال في مثل سِنه الآن يلعب ويلهو، يُثير القلاقل ويُزعج والديه بتلك الشقاوة المعهودة في الأطفال، يُشارك الأطفال حياتهم التي تُناسب تلك السن، لا أن يقوم بأشياء يعجز عن الإتيان بها رجال لهم شوارب، بل وربما شيوخ ورجال دِين.

كان شيخي بمجرد الانتهاء من تلك الجلسة يأخذنا إلى بيته للإعداد لخُطبة ما نلقيها في المسجد، أو التمرن على بعض الأناشيد التي نلقيها في احتفاليات الجماعة.

لم تَكنْ –بالطبع– خُطبة بالشكل المتعارف عليه، إنما بضعة سطور حَوت أحاديث وآيات من القرآن والمواعظ التي نقرأها من ورقة قد أعدَّها الشيخ سلفًا، نقوم بإلقائها على مسامع الحضور بالمسجد بعد الانتهاء من الصلاة.

وهكذا بشكلٍ شبه منتظم وفي أغلب مساجد القرية، ولأنه كان شيخي فكنتُ أعمد إلى تقليده في كل شيء. أردتُ أن أكون نسخة مكررة منه.

***

شيخي هذا كان مسئولًا عن الأشبال في القرية ممن هم دون سِن المراهقة؛ فلكل مرحلة سِنية شيخ بمستوى مُعين وأيضًا لكل فئةٍ شيخ يُناسب مستواها؛ العُمال لهم تنظيمهم الخاص، وطَلبة الجامعة لهم تنظيمهم الخاص.... وهكذا.

فأنت بمجرد أن تَبلغ سنًا محددة يتم نقلك لمستوى آخر، من المفترض أنه أكثر أهمية، وبمستوى تربوي مختلف، وكلها تدور في فلك إعداد الفرد المسلِم الذي سيكبر ليتزوج امرأةً مسلمةً، ومن ثَم تتكون الأُسرة المسلِمة فالمجتمع المسلِم فالدولة المسلِمة فالعالَم المسلِم، ومن ثَم التحكم في العالَم!

بعد سنتين من وجودي مع شيخي انتقل بي الدرب لشيخٍ آخر، ومن ثَم لثالث فرابع فخامس فسادس، كنتُ أنتقل من أُسرةٍ لأُخرى وكأنني عبء عليهم. لم يَكنْ يمر على وجودي في أُسرةٍ منتظمةٍ بضعة أشهر حتى أنتقل لأُخرى.

رغم تعدد هؤلاء الشيوخ فلم يسدْ أيهم يومًا هذا الفراغ الذي تركه في نفسي فقدَ شيخي الأول، بالإضافة إلى كوني لم ألمسْ فيهم نفس هذا الإخلاص وتلك الجدّية، البذل من أجل الدعوة، لم يعدْ هناك مَن يأتيني فجرًا ليرى لماذا لم أذهب إلى المسجد.

لم يعدْ هناك مَن يهتم بالوِرد الأسبوعي، لم يعدْ هناك مَن يهتم بنا أصلًا، وبدأتُ أشعر أنَّ الكلام في دوائرنا مُكرر، نفس القصص القرآنية، نفس الأحاديث، نفس الشخصيات الإسلامية التي كنا نتدارسها، هي هي لا تتبدل. وبمرور الوقت لم يعد يهتم بنا أحد.

***

تلك الأُسرة التي كنتُ أنتمي إليها في المرحلة الأولى لم أنتقلْ معها في مرحلتي الثانية، انتقلتُ لأُسرةٍ أُخرى اتَّسم أعضاؤها بالإهمال والتمرد وعدم الطاعة.

أما الأُسرة الأُولى التي نشأتُ فيها فقد انتقل بعضهم إلى أُسرةٍ أخرى والباقي لم يستمرْ داخل الدائرة، بسبب رفض الأهل للوجود داخل تلك الدائرة نظرًا لمطاردة الأمن لأعضاء الجماعة.

ذكَّرتني تلك الأُسرة التي انضممتُ إليها حديثًا بفصول المتفوقين وفصول الطلاب المتخلفين التي كنا نراها في المدارس.

كانت في مُنتهى العنصرية، فهم يجمعون كل من يتبادر إلى الذهن أنه لا أمل فيه في مكان واحد وتبدأ عملية النبذ كأنهم نجس. تلك رؤية قد تصح وقد تُخطئ.

لكن مقابلة مع الشيخ حدثتْ بعد سنواتٍ من تركي للجماعة أعادتْ السؤال لذهني من جديد، ذلك أنه أخبرني أنه كان يعلم أنني لن أستمر، ذلك أنهم أخبروه أنه لا أمل في استمراري معهم.

اكتفى بتلك الكلمات وذهب، وتركني والأسئلة تضرب برأسي، مَن هؤلاء الذين أخبروه؟ وما الذي رأوه مني كي يحكموا بأني لن أستمر؟ وعلى أي معيار صدر هذا الحُكم؟

هل داخل هذا التنظيم أُناس يختارون؟ وهل هناك معايير وُضعت للاختيار؟ ولو افترضنا أنني في نظرهم متمرد أو أني رجل عاصٍ، فلماذا لم يُعينونِ على نفسي؟

أليست هي في الأصل جماعة دينية جاءت لنشر الفضيلة والأخذ

بيد الناس للخروج من الضلال لعالَم الهداية؟ أم أنهم يختارون مَن يستحقون الهداية في نظرهم وينبذون الآخر؟ وهل جاءتْ الدعوة لأُناس دون أُناس؟

كنتُ عندما يضيق بي الحال أتوجه لمنزل شيخي الأول رغم أنه لم يعدْ مسئولًا عني الآن، أبثُّ له همي، وما آل له الحال، كنتُ أظن أنه سيتفاعل مع بثي وشكواي، إلَّا أنَّه لم يَكنْ يكترث.

لم يَكنْ هذا الذي لا يكلّ ولا يملّ، هل انتهت مهمته المحددة باستقطاب الأطفال؟ أم أنه لا يملك سوى تلك القدرة وفقط، وليست له قدرات أخرى؟

كان من أهم عيوبه أنه شديد الجانب، نادرًا ما يضحك، لا يتورع عن تأنيب شخص أخطأ، وكنتُ أنا على الوجه الآخر في حاجةٍ لشخصٍ لين الجانب يسمعني.

فقط أحتاج لشخصٍ يسمع، يُشعرني أنني لست وحدي، لا يسخر مِن تساؤلاتي، ولا يسفه رأيي، ولا يَرد على تساؤلاتي بهذا الرد المعتاد لدى الجماعة. أنت ذو عقيدة ضعيفة. أو أنَّ إيمانك يفتر.

أُريد مَن يحترم تلك التساؤلات، غير أنه وحتى اللحظة لا يوجد في رجال الجماعة مَن يحترم تلك التساؤلات، فتلك مناطق وعرة إن دخل فيها أحدهم صار مرتدًا، أو شيطانًا.

وإنَّ إحكام العَقل فيها درب من دروب الكُفر، وفي أقل الفروض يُسفه رأيك ويُسْخَر منك، وفي أفضل الأحوال يأتيك برد لا علاقة له بسؤالك.

***

ياسمين

أنتظر قدومها بشغفٍ؛ فهي البسمة التي تعطي مذاقًا خاصًا للحياة. كنتُ طالبًا في الصف الخامس الابتدائي، من الصعب أن أصف شعوري الحزين إن مَرَّ يومٌ دون رؤياها. دائمًا ما كنتُ أكتفي بالرؤية.

على مدار عام دراسي كامل لم يحدثْ بيننا حديث مباشر، ولم أسْعْ ولو للحظة لأن أَلفت انتباهها لهذا القلب الذي شغف بها حُبًا. هل حقًا كنتُ أعرف أنه حُب؟

ولكن هل يُدرك هذا القلب الذي ما زال في طَور النشأة، والذي لم يطرقْ بابه بعدْ إحساس الرغبة في الجنس، هل يُدرك تلك المفاهيم؟!

كان شعورًا من أروع ما تملَّكني، هو الحُب العُذري كما أُنزل. لكن وفي يوم من تلك الأيام الغَبراء التي مِن الصعب أن تُنسى، دخل علينا أستاذ اللغة العربية مع ناظر المدرسة، وقد رُسمت خطوط من الغضب على وجوههم تُنبئ عن عاصفة لا تُبقِي ولا تذر.

قال الأستاذ إنَّ والد حبيبتي حضر اليوم إلى المدرسة وأخبرهم أنَّ أحدهم وضع خِطابًا غراميًا لابنته خبَّأه في حاجياتها، يبدو أن حُبها طرق أبوابًا غير بابي.

نظرة الناظر ونبرة صوت المدرس كانت تُنبئ أن غضبًا سيَحل على هؤلاء العصاة الذين أجرموا في حق الإله وقد كان. فكيف لهم أن يحبوا ويعشقوا؟! كيف لهم أن يمارسوا هذا الهِراء الذي هو في مقام الزنا؟

علمتْ إدارة المدرسة اسم من أرسل هذا الخِطاب، إلَّا أنَّ الإدارة

أرادتْ أن يكون العِقاب جماعيًا حتى لا يرتكب أحدنا تلك الفاحشة المسماة بالحُب!

كان العِقاب عن طريق الضرب على باطن القدم. وتلك طريقة اتُبِعت قديمًا لضرب المخطئين. اشتهرت أكثر في الكتاتيب الخاصة بتحفيظ القرآن.

كان يقوم أحدهم بإمساك قدميك بإحكام بعد أن تكون قد تمددت على الأرض موجهًا باطن قدميك لأعلى، وعن طريق عصاه غليظة يبدأ المدرس بتوجيه ضربات قوية ومتتابعة إليك. الضربة الواحدة كفيلة بأن تجعلك تكره الحبيبة والأب والأم والعالَم أجمع.

كنتُ أجلس في أول الصف باعتباري من المتفوقين، لكن تفوّقي وحفظي للقرآن لم يشفعا لي، ولأنني أجلس في أول الصف فكنتُ أول المعاقَبين، وأصبحتُ صاحب النصيب الأوفر من الضرب.

لقد أفرغ المدرس شحنة غضبه كلها في أول من عاقب. أنهى المدرس الضربات العشر، وكان هناك إجراء احترازي مُتَبع حتى لا تتورم القدمان، هو أن تسير على القدمين حافيتين لبضع دقائق.

ونظرًا لأنَّ الأمر مؤلم فلم يجدْ المشي نفعًا؛ فأخذت أُهرول جيئةً وذهابًا مخترقًا الطريق أمام الفصول المجاورة لفصلي الدراسي.

خرج المدرسون جميعًا مستفسرين عما يحدث، وكلما علم أحدهم بالأمر أخرج عصاته وأخذ يضرب فينا هو الآخر، فصرنا نتحسس أقدامنا وخلفياتنا أيضًا كنتيجة لضربها هي الأخرى.

استمر هذا التعذيب لما يُقارب الساعة، تم تعذيبنا وكأننا زنينا

بالفتاة في ميدان عام ثم قتلناها وقطعناها إربًا وحرقناها ومن ثَم ألقينا بثراها في الهواء، لم يكنْ أكثر من مجرد خِطاب!

ظللتُ طريح الفراش في منزلي لمدة أسبوع لا أقوى على السير على قدمي، ولِأكثر من أربع سنواتٍ ظللتُ أُعاني ألمًا في قدمي وظهري كنتيجة لهذا التعذيب.

إثر تلك الحادثة تكوَّن لدى رُعب من كل ما له علاقة بالحُب والفتيات. كنتُ أَلمح إحداهن قادمة من طريق فأُحول مساري لطريقٍ آخر حتى لا أُقابلها، حتى حبيبتي التي كنتُ أنتظرها كل يوم ليبدأ يومي وتعلو وجهي بسمتي صِرت لا أقوى على النظر إليها.

بعد تلك الحادثة ببضعة أسابيع قام والد حبيبتي بنقلها إلى مدرسةٍ أُخرى، ومع تركها لعالَمي انتهت أقوى وأول قصة حُب في حياتي، وآخر قصة حُب لسنواتٍ قادمةٍ أيضًا.

بعد بضعة شهور دخلتُ عالَم الجماعة، فطالما أنني مُذنب وتُحركني الرغبات تجاه الفتيات؛ فأنا يجب أن أتوب إلى الله وهذا ما وجدته داخل دائرتهم.

في هذا العالَم زاد خوفي من المرأة وهروبي من أحاسيس العِشق؛ المرأة في عالَم الأديان عامةً رجس لا يجب الاقتراب منه. قد يَسطر الفقهاء والقساوسة مجلدات عن احترام الأديان للمرأة، غير أن الواقع يُنبئ أن هناك خللًا بين النظرية والتطبيق.

شيئان في عالَمي كنتُ أشعر كأنهما لُغزٌ مُحرَّمٌ علينا الاقتراب منه: (المسيحي والفتيات)، مهما حدثوك عما يُسطر في الكتب فاعلم أنهم كاذبون؛ لأنَّ ما نعيشه أمر آخر.

حتى تكون أخًا ملتزمًا، من أولياء الله، فعليك أن تنبذ رغبتك في المرأة، أنت مُحرَّم عليك حتى مجرد التفكير فيها، وإن حدث فأنت إذًا صاحب عقيدة مشوبة يجب مداواتها.

بعد تلك الحادثة بأربع سنوات قابلتُ فتاةً أخرى، لم أَكنْ أثق حينئذٍ في كونها جميلة، لا أعرف هل هي قبيحة؟! كانت تلك هي المَرة الأُولى التي أُدقق فيها النَظر إلى فتاة.

كانت هي أيضًا طالبة في الصف الثالث الإعدادي، كانت تسكن منزل على رأس شارعنا، لم أَكنْ أنتبه لها قبل ذلك، لم أَكنْ أنتبه لأي فتاة.

حتى عندما كنتُ طالبًا في المرحلة الابتدائية وكانت تشاركني الصف فتيات، لم أَكنْ أجد القدرة على رمق إحداهن، كان أبي يخبرني أنَّ النظر إلى الفتيات أسرع السُبل إلى النار، الشاب المؤمن لا ينظر إلى فتاة.

كنتُ أتلمس فيها شيئًا ما، خشيتُ أن أترجمه حُبًا. كنتُ أُحاول إيهام نفسي أنها علاقة عادية فرضتها مقابلاتنا التي تحدث حتميًا نظرًا لأننا متجاوران في السكن وزملاء ندرس في نفس العام الدراسي.

كانت تُحاول دائمًا التقرب مني بأساليبٍ شتى، هي أول من أهداني شيئًا في عيد ميلادي، كانت المَرة الأُولى التي أحتفل فيها بعيد ميلادي وكانت أيضًا الأخيرة، فتلك الأمور من البِدع التي درَّبتني الجماعة على تجاوزها.

كانت خمرية اللون أقرب إلى السمرة، في مثل طولي تقريبًا، تنطق كلماتها بسرعةٍ يصعب اللحاق بها، أظن أنها تركتْ في لساني منها أثرًا.

قبل أن أعرفها كنتُ قليل الكلام، غير أنني–بعد أن طرقتْ حياتي–

أضحيتُ أتحدث كأسرع رجل في التاريخ يكاد أصدقائي يحتاجون لمترجمٍ لما أقول.

لم أَهنأْ في تلك العلاقة ولو للحظة، كانت كلها صراعات، ما بين هذا الألم النفسي الناتج عن حملة التعذيب التي قادها علينا مدرسي المدرسة الابتدائية والتي تركتْ في نفسي أثرًا صَور لي أنَّ الحُب دائمًا يجب أن يقابله عِقاب.

فكنتُ كلما رأيت فتاةً تلفَّتُ حولي كمن أجرم وينتظر أن ينزل به العقاب، لم أَكنْ أعلم كيف ولكنه سيأتي لا محالة، حتى وإن كنا سويًا أنا والفتاة لا ثالث لنا. كنتُ أنتظر أن يأتي العِقاب وقتها من السماء، ربما سقط نيزك أو شهاب واصطدم برأسي لأصير بعده كائنًا آخر غير الذي أنا عليه الآن.

وبين تلك القصص والروايات التي نسمعها في دوائر الجماعة والتي تتحدث عن الطهارة وغض البصر وعن غضب الرَّب الذي يسخط على هؤلاء الذين ينظرون إلى أية فتاة، مجرد نظرة، سواء نظرة حُب أو غير ذلك.

كنتُ أظن أن الإله سيسخطني في الحال إلى مخلوقٍ آخر إن ارتكبت المعصية، غير أنه وعلى الجانب الآخر كان يدور نزاع في نفسي بين هذا الترهيب من الحُب وفي نفس الوقت الترغيب الذي فُطِرنا عليه.

فكيف تكون المرأة نجس يستوجب الطهارة وتجديد العقيدة ومن ثَم نجد في أنفسنا –نحن الرجال– هذا الانجذاب الفطري لارتشاف العشق مِن نهرِها؟!

كيف نسمع ليل نهار عن حُرمة هذا التمازج بين الشاب والفتاة، ثم

نجد آلاف الأغنيات ومئات الأفلام والمسلسلات التي تتحدث عن الحُب والعشق والحبيبة والحبيب؟!

كنتُ أقول لنفسي متسائلًا بطفولة: ما هذا الغباء؟! إما أن تُحَرموا هذا الأمر بالكُليةٍ، وإما أن تتركوا لنا العنان لأن نغرق في هذا العالَم.

***

تلقفتني عيناها في ذلك اليوم وأنا أختلس النظر، كانت تهم بالدخول إلى منزلها عندما ألقتْ بنظرة على هذا الجالس على عتبة منزله يرمقها في خُبث، أرسلتْ ضحكة خفيفة ألهبتني، أحسستُ شعورًا غريبًا يخترقني، لا أفهم ماذا يحدث؟!

تعودتُ أن أجلس أمام المنزل في نفس موعد عودتها من المدرسة كل يوم، في أحد الأيام تأخرتْ عن موعدها، لم أطقْ صبرًا، لقد طال الانتظار، هل حضَرتْ باكر اليوم ولم ألحقْ بها، كيف؟! ذلك هو موعد عودتها من المدرسة.

تركتُ جلستي على عتبة البيت وتوجهت إلى رأس شارعنا، أنهيتُ الطريق وفجأة اصطدمتُ بها، خرجتُ من الشارع مُسرعًا في الوقت الذي ظهرتْ فيه الفتاة فوجدتها في أحضاني.

تلبسني شيطان حينها وأخذتُ أتصنع كل ألون الاعتذار، في الوقت الذي تمنيتُ لو طالتْ الملامسة قليلًا، أرسَلتْ ضحكة خفيفة مؤذنة بالسماح.

في اليوم التالي تجرأتُ أكثر من الجلوس على عتبة منزلنا في انتظار طلتها، انتظرتها في طريق ذهابها إلى المدرسة، في مكان أبعد بقليلٍ عن

قريتنا، سيقتلني أبي لو أخبره أحدهم، وربما ابتعد عني الشاب على رأس الحلقة وتركني لشيطاني.

فور أن رأتني أقبلتْ، كانت تملك جرأة تصيبني بالهَلع، ربما لأنه ليس لها والد تصل لحيته لمنتصف بطنه أو حلقة على رأسها شاب مثل شيخي، فهي لا تعلم أننا نتحايل على الله الآن ونقترف ذنبًا قد يُحيلنا خنازيرًا على إثره، من الأفضل ألَّا تعلم، لا أود أن أراها تبتعد عني إرضاءً للإله.

تحدثنا في أمورٍ كثيرة ونحن نسير في الطريق إلى مدرستها في المدينة المجاورة لقريتنا، تحدثنا في كل شيء كأننا أصدقاء منذ زمن، تجنبتُ الخوض في الحلال والحرام الآن، فعندما يظهر الله تختفي اللحظات الجميلة.

لا يهم هل صُحبتي لها الآن حلال أم حرام، المهم أنني سعيد وأنا بصُحبتها، تركتها على موعدٍ آخر، في الغد انتظرتها خارج القرية، تحدثنا في أمورٍ أخرى غير ما تحدثنا به في الأمس.

لم أَكنْ أعلم من أين يأتيني الكلام، كانت تملك ابتسامة في مقدورها أن تُحيي موتي، وأن تشفي عجزي، وأن تُحيلني إلى طائر يطير بجناحين.

وفي يومٍ من تلك الأيام الغَبراء أيضًا والتي ستستمر معي إلى نهاية الرحلة طلبتْ مني أن نلتقي بعيدًا عن أعين الأهل، سيذهب كلٌ منا منفردًا ونتقابل في الزمان والمكان المحددين مسبقًا.

فنحن نسلك نفس الطريق كل يوم للذهاب إلى المدرسة، فأنت في قريتي تحتاج لأن تسير ما يُقارب النصف ساعة على قدميك قبل أن تصل لطريق مأهول تستقل منه حافلة إلى حيث تُريد.

بعد بِضع دقائق من السَير يكون الطريق شبه غير مأهول بالسكان ومن السهل أن نتبادل أطراف الحديث دون أن يؤرق لقيانا أحد، كنا في كل مَرة نتقابل فيها وكأننا ذاهبان لسرقة أحدهم أو لارتكاب عمليةً إجرامية، نخشى أن ترانا عين أحدهم فتفضح فِعلتنا النكراء أمام أهلينا.

قابلتها وكانت في حالة من الارتباك لم أرها من قبل، وكانت في حالة من الأنوثة واللين وكأنها قطعة سُكّر ذابتْ في الماء فلم تمسك لها طرفًا، تقلبها يمينًا تقلبها شمالًا فلن تعجزك شيئًا.

نظرتْ لي نظرةً لن أنساها، فيها من الشوق والحنين ما لم أره في عين أية فتاة أخرى عرفتها بعد تلك اللحظة، سكتتْ هنيهة، تنهدتْ بزفراتٍ وكأنها على وشك أن تطفئ نارًا ألَمَّت بها.

تحولت سمرتها لحُمرة ربما من الخجل، وربما من فرط اللَّذة التي احتوتها، فهي الآن بين يدي الحبيب. تحدثتْ قليلًا عن كوني نورًا ظهَر في حياتها أضاء لها تلك الظُلمة التي حَيت فيها لسنواتٍ مضت.

قالتْ إنني مَثَّلتُ لها هذا الأمل الذي يُعطي للحياة لونًا ومذاقًا ويجعلها أكثر سعادة، ثم ما لبثتْ أن سكتتْ للحظاتٍ معدودةٍ، وكأنها تُهيئني لتقبل ما هو آتٍ، ثم قالتها بحنانٍ أذاب قلبي بين ثنايا حروفها:

– أحبك.

لم أردْ، حلَّ الصمت بالمكان، ارتبكتْ، ثم كررتها:

– أحبك.

قالتها وصمتتْ. وطال صمتها، فعادتْ وقالتْ: «**أحبك لا كما يُحب**

العُشاق، فتلك كلمات أضيَق مما يدور بجنباتي»، وأردفت أنها لا تلوي على شيء سوى كونها معي، وفقط معي، تحيى على هذا الأمل الذي سيجمعنا يومًا سويًا، حين نرتشف من نهر لذته ما يُطفئ ظمأ السنين.

تلبستني حالة من السكون والصمت لكَم كرهتها، كنتُ أود لو أني ارتشفت من رحيق شفتيها غير ملتفتًا لمن حولنا، وهل يوجد أُناس غيرنا؟ وكأني لم أعدْ أرى سواها، بل حقًا لم أعدْ أرى سواها.

حدثتني نفسي: «**ضُمَّها إلى صدرك الآن، بل اشدد على ضَمها كي تكونا جسدًا واحدًا، وتحسس هذا الذي تحت حِجابها، وأطلق لمساتك على شِفاهها، وجبينها، وخديّها**».

صِرت أعلم يقينًا أني أعشقها، كنتُ أذوب في ثناياها كلما مرّتْ، أو نظرتْ، أو همستْ، فكيف الحال وهي بين يدي الآن؟ تستأذنني في أن أقطف ثمرتها، أن أُنَصِّب نفسي مَلكًا على عرش قلبها.

سكتتْ لتنتظر ردي، لتنتظر إعلان حُبي، غير أنَّ كلماتي التي خذلتْ قلبها صفعتها على غير إرادة مني.

قلت: «**ولكني لا أحبك!، نعم أُكِن لكي إحساسًا رقيقًا، غير أنه ليس بحُب الرجل للمرأة**».

أبعدتْ وجهها عني وبكتْ.

لم أُدركْ هل أنا الذي تحدثتُ أم أحمق آخر غيري، ماذا قلت؟! حدثتُ نفسي طالبًا إياها أن تعود أدراجها سريعًا، أن تصحح ما كان، أردت أن أُطلع حبيبتي على هذا السِر الذي طال احتفاظ قلبي به.

أردتُ أن أعلمها كم أني أحبها، ليس أنا الذي تكلم في هذه اللحظة،

حاولت أن أُراجعها في ما قالت، وأن أصرخ في السكون قائلًا: أحبك، أن أُحطم ثقلًا كان يُلَجم لساني كلما أردتُ أن أفصح عن عشقي.

صَمت لم يَطلْ بي وبها. تركتها وذهبت، وفور أن عدتُ لمنزلي، دخلتُ لغرفتي وألقيتُ نفسي على سريري وانهمرتُ في البكاء، لماذا لم أُخبرها؟!

هل عجز لساني عن نُطق كلمة من ثلاثة أحرف؟ هل ذِكرَى الأستاذ الذي عذبني في الابتدائية ما زالتْ تأسر عقلي؟ أم أنَّ مفاهيم الحرام والحلال هي التي منعتني؟

أي عذاب هذا الذي يمنعني عن ضمها، ملقيًا بي في عذابٍ أشد؟ وأي حرام في عشق تحومه لمسات الطفولة البريئة؟ حتى وإن لم تَكنْ بريئة، فأي قانون يمنع عاشقين أن يجتمعا على كلمة أحبك؟

***

حدث الصدام بين دِين الجماعة ودِين الحُب، فكيف لي أن أرى الحبيبة ذنبًا يجب التوبة منه، وأن أرى المرأة معصية تسير على الأرض؟ هي كائن يسير خلف الرجل، وخلفه بمراحل، ولو اقتربتْ من الرجل كانت أول الطريق للوصول لجهنم التي لا تُبقى ولا تذر.

غير أنَّ هذا الصدام دائمًا ما كان ينتصر فيه دِين الجماعة. كان من المستعصي على هذا القلب أن يتخطى خرافات العقاب اللحظي.

كنتُ أرفض الحُب لا عن قناعة بدينهم، كنتُ أرفض الحُب خوفًا من العقاب الذي أصله في عقيدتي تعذيبي في المدرسة الابتدائية، وترهيب الخطباء لنا من الإقدام على هذا الذنب الأجم.

غير أنَّ هذا الخوف من الحُب العُذري السامي أحالني إلى عالمي

السِري بحبه الحيواني فقط. حاولت أن أُحَدِّث بعض إخوتي داخل دائرة الجماعة في مسألة الحُب وما يختلج صدري من رغبات. لكن تلك المحاولات لم تَكنْ ذات فائدة.

فالمسألة دائمًا ما تنتهي بالتأكيد على ضرورة الصبر وغض البصر وتجنب التفكير في مثل تلك الأشياء التي لن تكون عاقبتها سوى غضب الرَّب في الدنيا والآخرة.

تحول الضغط في دائرتي داخل الجماعة إلى انفجار في دائرتي السِرية، وأدركتُ عوالِم أخرى أعطتني إحساسًا باللَّذة. لم أَكنْ أعرف إن كان شبيهًا بإحساس الجنس أم لا؟ غير أنه إحساس كان يُشعرني بالمتعة.

سمعتُ بعض الأصدقاء في مدرستي يتحدثون عن هذا الأمر الذي يأتيه المراهق عن طريق مداعبة حيوانه فيُثار ليصل إلى ذروةٍ من اللَّذة لا تقارنها لذة.

أتيتُ هذا الأمر مَرة وأخرى ومرات، ومع أنني كنتُ أجلد ذاتي في كل مَرة على إتيان تلك العادة التي لا أعلم لماذا سموها بـ(السِرية) علمًا بأنه لم يسلمْ منها مراهق، وهي معروفة للجميع إلَّا أنني كنتُ أعود فآتيها حتى أضحتْ من كثرة إتيانها مسألة حياتية عادية!

بيد أني لم أنتبه إلى أن تلك العادة كانت في كل مَرة آتيها تقتل بقايا هذا الحُب العُذري في قلبي، وكانت تُحيل المرأة في نظري لأداة للجنس وفقط، فالمرأة خُلقت كي نمارس الجنس معها، هي فقط وعاء للَّذة.

أذكر قول شيوخنا إنه من يحفظ نفسه في الدنيا فله في الجنة سبعون من الحور العين يمارس معهن الجنس. هذا الكلام كان يزيد

تأصيل الفكرة في ذهني، فالإله وضع المرأة كثواب للطائعين ليمارسوا معها ما حفظوا الإله فيه في الدنيا، إذًا فالمرأة أداة للجنس وفقط.

لكن، إن كان هذا الأمر مختصًا بالإنسان كأصل سواء كان ذكرًا أم أُنثى فلِم لَم يرْد القول إنَّ هناك أيضًا سبعين من الذكور الحِسان للمرأة لتمارس معهم الجنس.

تلك الفرضية أصلتْ في ذهني أنَّ الثواب للرجال وفقط، أما النساء فهم خدام للرجل في الدنيا والآخرة. زاد اختراقي لهذا العالَم الحِسي وزاد تشبثي به، ومعه قَلَّتْ معاني الحُب بعُذريته وتوحشت النظرة للمرأة على أنها أداة للجنس.

***

دعوة

انتهى موعد المقرأة التي انتظمت في حلقاتها على مدار عام 2000 بمسجد الشيخ سليمان على أطراف قريتي. كنتُ في تلك الأيام أقضي يومي بأكمله في المسجد لا أغادره إلَّا بعد إغلاق أبوابه بعد صلاة العِشاء.

مضى عام على حالتي تلك. كان أبي سعيدًا بأصغر أبنائه المتدين، وامتدت السعادة إلى رواد المسجد بطالب الثانوي الذي غادر الدنيا ليحيا في كنف الله، غير أنهم أخطئوا الرؤية، وعجزتْ بصيرتهم عن تلمّس كوني أغزل أُولى حلقات التَرك.

***

دائمًا كان يتم التأكيد في جلساتنا الدينية على دور الشباب في الدولة الإسلامية، وكيف أنَّ المسلمين كانوا يجتمعون في دار (الأرقم بن أبي الأرقم) وهو ابن الحادية عشرة، يقوم بذلك مُعَرِضًا نفسه للقتل أو التعذيب، وكل هذا دفاعًا عن ذلك الدين الناشئ حديثًا.

وكيف أنَّ الإمام (عليّ بن أبي طالب) أسلم وهو في السابعة من عمره، وأنَّ (عُمر بن الخَطاب) شيّب مكة وصدح بإسلامه في ربوعها وهو في السادسة والعشرين من عمره.

وأنَّ الشاب (مُصعب بن عُمير) ترك رغد الدنيا ونعيمها ليعيش في كنف الإسلام، وأنَّ (أسامة بن زيد) قاد جيشًا وهو في الخامسة عشر من عمره.

كنتُ وأنا في الثانية عشر من عمري، لا أقرأ سوى (بلال بن رباح) والحَجر الذي وُضع على صَدره وهو يُعذب في صحراء مكة من أجل أن يترك هذا الدين، إلَّا أنه لم يَكنْ ينطق سوى بـ(أحد أحد).

كنا نسمع في كل جلساتنا الدينية عن غزوات الرسول: (بدر، أُحد، الخندق، فتح مكة، حُنين، مؤتة، تبوك، ...) وكم من فئةٍ قليلة غلبتْ فئةٍ كثيرة بإذن الله.

كانت حياتي تدور بين مكة والمسجد الأقصى وفقط، وتقمص النظام وأهل مصر ودور المنافقين الذين يُحاربون من يسعون لإقامة دولة الخلافة وإعادة فلسطين المُحتلة.

(عليّ بن أبي طالب) هذا الفارس الذي فتح الله به خَيبر، بعد أن عجز المسلمون عن اقتحام حصون خَيبر اليهودية. كَبَّرَ الإمام علي وصدح بقوله الله أكبر، ونتج عن تقدمه بخيله لحصون خيبر غبار كثيف عجز المسلمون خلاله عن تحري معالِمه.

وإذا بهم فجأة يرون الإمام عليًّا وقد اقتلع أحد أبواب الحصن ليجعله دِرعًا يُحارب به أعداء الله.

هذا المجاهد الأبي (البراء بن مالك)، الذي تغلب على حصون الأعداء في إحدى المعارك بأن طلب من الصحابة أن يضعوه على (منجنيق) ويلقوه داخل الحِصن ليفتح لهم الباب وقد كان، غير أنه كان قد أُصيب بأكثر من ثمانين ضربة.

كان الخليفة (عُمر بن الخطاب) يخشى أن يوَليه على جيشٍ لتهوره الشديد، وكانت إذا احتدمتْ المعركة وهان الصف نودي على البراء أن أشعل الحماسة من جديد في صفوف المجاهدين، كان شهيدًا يمشي

على الأرض، فالدنيا لا تساوي لديه الكثير.

(القعقاع بن عمرو التميمي)، قال عنه أبو بكر الصديق: «**لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل**».

(حمزة بن عبد المطلب)، الذي صفع عمرو بن هشام المخزومي –أبو جهل– في مكة وبين أتباعه وفي عز جبروت كفار قريش ولم يقوَ أحدهم على رد الصفعة.

(البوسنة والهرسك، سراييفو، كوسوفا، الشيشان، أفغانستان، باكستان، بورما، كشمير، العراق، فلسطين، غزة، رام الله، نابلس، بيت لحم، جنين، القدس).

(عز الدين القسام، أحمد ياسين، الملا عمر، أسامة بن لادن، أيمن الظواهري، واي بلانتيشن، واي ريفر، خارطة الطريق).

كل هذا كنتُ أحفظه عن ظَهر قلب وأنا في الثالثة عشر من عمري، إلَّا أني –وفي نفس العام– عرفتُ بالصدفة البحتة أن هناك رجلًا مصريًّا مرشحًا للحصول على جائزة نوبل اسمه (أحمد زويل).

***

أتتْ الأخبار في نهاية العام 2000، وكنتُ حينها في الخامسة عشر من عمري، أنَّ شيخ الأزهر أفتى بأنَّ من يُفَجر نفسه منتحرًا وليس شهيدًا، وهو في النار، احمر وجهي وتملكني الغضب، وددتُ لو أُفَجر نفسي فيه ليعلم إن كان من يفجر نفسه في الصهاينة شهيدًا أم منتحرًا.

صَدَرَ الأمر لكل دوائر الجماعة بأن يُصلوا الجُمعة في الأزهر، ستكون تظاهرة لنصرة إخواننا المجاهدين في غزة ضد وهن النظام في حمايتهم.

كانت المظاهرة الأُولى التي أشترك فيها.

لم تَكنْ من أجل الفقر ولا الجهل ولا المرض المتفشّي في مصر؛ لأنَّ هذا الأمر لم يَكنْ يعني مسئولي الأُسر داخل الجماعة ولا الجماعة نفسها.

أو ربما بسبب الضغوط الأمنية التي كانت تجعلهم يتغاضون عن الحديث في مثل تلك الأمور تفاديًا لتصعيد الصراع مع النظام.

تمتْ الدعوة للتظاهر مناهِضة لفتوى ضد مجاهدي دولة أخرى. فتوى صادرة من أكبر رمز ديني مصري، بل ورمز إسلامي في العالَم أجمع. إنه شيخ الأزهر.

كنتُ حتى اللحظة أعتقد أنَّ كل من صلى وزكى وصام وقام الليل هو من الناجين من النار، وأنه لا غبار عليهم، كيف به وهو رأس الأمر في العالَم الإسلامي؟ كانت صدمة لما تربّيت عليه.

أنا أعلم أنَّ مَن هم خارج الجماعة إما عملاء لأمن الدولة أو علمانيون يسعون لفصل الأرض عن السماء، ونشر الإباحية والشذوذ، لكني لم أَكنْ أعلم أنَّ هناك صنفًا آخر، مع الوضع في الاعتبار أنه من زمرة المسلمين.

وبجانب أنها كانت صدمة فقد كان صِدامًا أيضًا، صِدامًا مع أهلي في المنزل، لم أترجمْ هذا الخوف الشديد الذي ألمَّ بهم حينها. تهيأتُ للخروج للتظاهرة وأخبرتُ أمي وأخي الأكبر بكل عفوية –وكأني ذاهب لأمرٍ حياتيّ يفعله الجميع– أني ذاهب لتظاهرة ضد النظام الحاكم تضامنًا مع مجاهدي فلسطين.

إلَّا أني وجدتُ أمي تصرخ في وجهي، وأخي الأكبر يقبض على يدي مانعًا إياي من إكمال سيري.

تعجبتُ من تلك المسألة، فأنا ذاهب مع الزُمرة الطيبة أهل الجنة لمواجهة أهل الكُفر والإلحاد، وأهلي حتى تلك اللحظة كنتُ أظنهم أهل جنة، ما لهم يمنعوني مشاركة إخوتي في أمرٍ طيبٍ؟

تمسكتُ بالخروج، اندهشتْ أمي من موقفي، فتحول صراخها إلى بكاء واستعطاف ألَّا أخرج، واستحالتْ يد أخي القابضة على معصمي إلى أخرى حانية تُخبرني أنهم يخشون أن يصيبني الأذى.

زادتْ دهشتي، إنها مظاهرة، لم أخبرهم أنني ذاهب لأرض الجِهاد وقد أُقتل، وحتى إن قُتلت فيجب أن يعينوني على نفسي. هكذا تعلمتُ في مدارس الجماعة، أنَّ أرواحنا أهون شيء نقدمه للإسلام، يجب أن تكون النية دائمًا من أجل الإسلام ولله.

لما اشتدَّ بكاء أمي واستعطاف أخي الأكبر صرختُ صرخةً مدويَةً في وجهيهما، أعلنتُ فيها رفضي تلك الوصاية وأنني سأخرج حتى لو في الأمر قتلي، ساد الصمت المكان، فطفل الأمس أصبح رجلًا يصرخ، ويتحدث عن الموت وكأنه أمر هين.

لما أدرك الجميع أنني ذاهب لا محالة اشترطتْ أمي أن يصحبني أخي الأكبر في تلك التظاهرة، وتعجبتُ من هذا الطلب، هي تخشى أن يصيبني ضرر ولا تخشى على أخي الأكبر أن يصيبه نفس الضرر!

خمنتُ أنَّ وجود أخي ليكون مانعًا لي من أن أتمادى في التظاهر، فعندما يُحمى الوطيس لن يكون عليه سوى أن يحملني عنوة بعيدًا عن الأمر.

حملتنا سيارات من قرية كَفر غطاطي وتوجهت بنا إلى الجامع الأزهر، وكانت تلك هي المَرة الأُولى التي أُصلِي فيها في ذلك المسجد ذو التاريخ العريق من النضال ضد المستعمر، وها نحن نُجدد هذا التاريخ ولكن ضد الدولة الكافرة.

فوجئتُ كما فوجئ الجميع أنَّ خطيب الجمعة هو نفسه شيخ الأزهر، كيف جَرؤ على الحضور هنا؟ صعد المنبر في خطوات مرتعشة وأبدى ابتسامة ليس لها معالِم وأخذ يخطب فينا.

إلَّا أني لم أذكرْ من خُطبته العصماء سوى كلمات قليلة تلك التي اختتم بها خطبته، قال الشيخ: إنَّ من يُفَجِر نفسه في فلسطين شهيد شهيد شهيد، وأخذ يرددها بحماسة شديدة وانتفض على إثرها المسجد مردِدًا: **«الله أكبر»**.

صلينا ركعتي الجمعة وقبل أن ينتهي الإمام من التسليم علتْ الهتافات واهتزت جدران الجامع الأزهر من قوة الهتاف. نشوة غريبة اعترتني حينها، كان القلب ينتفض مع كل هتاف، قمتُ لأمسك بيد أخي لنشترك سويًا في التظاهرة فلم أجده بجواري.

كان قد انتفض منضمًا للحشود هاتفًا بكل قوةٍ: **«خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود»**.

تملَّكني الخوف على أخي وقبضتُ على يده حتى لا نفترق وسط تلك الأمواج الهادرة من المتظاهرين، وبدلًا من أن يحميني أخي الأكبر من اندفاعي حميته أنا، إلَّا أنَّ هناك مسألة أخرى أثارت دهشتي.

ذلك الرَجل الذي كان يجلس على يساري ويحمل صورة (جمال عبد الناصر). لم أَكنْ أجد في أدبيات الجماعة ما يدل على أنَّ عبد الناصر

مسلِم، هو رجل حارب الدِين وحارب مَن يطالبون بتطبيق شرع الله، إذًا فلِم تُرفع صورته في المسجد؟

الأدهى أنه وفور انتهاء الصلاة وجدتُ المتظاهرين وقد انقسموا إلى فرقتين بمظاهرتين وهتافات مختلفة، وكان الفريق الآخر يحمل صورًا لعبد الناصر، سألت نفسي حينها: وهل يوجد مجاهدون في هذا الكون غيرنا؟، إضافةً إلى السؤال الذي شغلني حينها ألا وهو: ما علاقة هؤلاء المجاهدين بهذا الذي حارب شرع الله؟

بعد تلك الحادثة تبدَّلتْ نظرتي للأمور، وتبدَّلتْ نظرة أهلي لهذا الذي كان بالأمس طفلًا. عَلِم أبي في المساء بعد أن عاد من عمله بما كان مني، بمجرد أن أخبرته أمي ذهب إلى مكتبتي الصغيرة وأخذ يُقلب فيها وأخرج ما يُقارب الثلاثين كِتابًا كلها تتحدث عن الجماعة والجهاد وفلسطين وطلب مني إحراقها أمامه، وألَّا أُعاود الاتصال بهم مجددًا.

تعجبتُ من موقف أبي الذي تبدَّل هكذا فجأة، كان بالأمس سعيدًا بأصغر أبنائه المتدين، ولم يَكنْ يُعَقِب على تواجدي داخل صفوف الجماعة.

لكن يبدوا أنَّ المسألة اختلفتْ الآن، ذلك أنه أخبرني حينها أنَّ صديقًا له في العمل كان عضوًا في الجماعات الإسلامية أخذه زوار الفَجر من منزله، وقد مَرتْ بضعة أشهر ولا يعرف عنه شيء.

كنتُ أسمع في حلقات الجماعة وأقرأ في كُتيهم عن زوار الفَجر هؤلاء، لكن كانت تلك هي المَرة الأُولى التي ألمسها في أحدهم، وكان هذا الشخص صديق أبي من المقربين إلى قلبي، إلَّا أني لم أهتمْ بما طلبه أبي، وأخذتُ أُحدثه عن الجهاد والشهادة والقضية، والموت في سبيل

الإسلام.

وتعجبَ أبي من كوني أرد عليه الكلمة بكلمة؛ لم يَكنْ ليّن الجانب مثل الآخرين، كان عنيفًا جدًا، لا يتورع عن ضرب من يُغضبه بأي شيء تطاله يداه، وبمجرد أن خالفته علتْ أمارات الخوف كل من بالمنزل.

فأبي عندما يهم بضرب أحدنا لا يُفرق، فهو يجعل الليلة سوداء على رءوس الجميع، لكن وعلى غير المتوقع لم يحركْ ساكنًا، فأنا المقرَّب إلى قلبه، أحب أبنائه إليه، لهذا تركني وذهب، لكن ليته ما تركني.

***

دين

دائرة مغلقة. أسوارها عالية. ما لَبِثْتُ أن أوشكتُ على الانهيار. ذلك الذي بدأ مع انتقالي إلى المدرسة الثانوية بمدينة مجاورة لقريتي.

المدرسة الإعدادية حتى وإن كانت في قرية أخرى غير قريتي إلَّا أنها لا تزال قرية، تحمل نفس الأفكار التي تحملها قريتي، فالقرى ليست في حاجةٍ إلى أديان تشدّد على أهلها، فأعرَافهم وتقاليدهم تكفي وزيادة، أما المدن فالأمر نوعًا ما مختلف.

وكما أنه كان هناك صعود في مَواطن، كان هناك هبوط في مَواطن أخرى، فكلما زاد اهتمامي بمحاولة الخروج من شرنقة الجماعة، وزاد اهتمامي بالسعي لإيجاد إجابة لتساؤلاتي، كلما كان هناك هبوط في مستواي الدراسي، بالإضافة إلى تَرَدِي علاقاتي الاجتماعية.

محاولاتي للخروج من الجماعة كانت تستلزم تركي لتلك البيئة بالكُلية، حتى تلك الأُسرة التي كنتُ أجلس معها في دائرتي، كنتُ لا أجد سعادة وأنا معهم، هم أضحوا أصدقاء لا يفارقون بعضهم، حاولوا كثيرًا إدماجي في صداقتهم تلك، غير أنهم لم يفلحوا، كنتُ في وادٍ آخر، وعوالِم أخرى.

بدأتُ أَمِل من دراستي، لم أَكنْ أجد بين كُتبي المدرسية أية إجابات تشفي الغَليل. نوعًا ما كنتُ أجد الملاذ في كِتاب التاريخ وكِتاب النصوص الشعرية على ما فيهما من نقصٍ يخل دائمًا بالنص.

غير أني كنتُ أحصل على طرف الخيط من تلك النصوص وأُغذيها بقراءاتٍ حرة من الخارج. أستعين دائمًا بمكتبة المدرسة، لم أَكنْ أملك

من المال ما يكفي لشراء الكُتب، وأبي كان يجد في القراءة الحُرة ملهاة عن دراستي الأصلية التي ستجعل مني إنسانًا مرموقًا.

كان لا يعطيني المال اللازم لشراء الكتب، أو بمعنى أدق فإن راتبه الحكومي كان لا يكفي إلَّا لِما يسد رمق أُسرة مكونة من زوج وزوجة وخمسة أبناء.

ومكتبات الجماعة كانت لا تحوي سوى كتب الفقه والسِيرة والعقيدة التي يكتبها رجالات الدعوة.

كان العثور على رواية في تلك الآونة بمثابة من وجد كِنزًا لا مثيل له.

تلك المعاناة في العثور على الكتب لم تستمرْ طويلًا؛ الأُسرة المجاورة لنا في السَكن تمتلك فتاتهم الطالبة في كُلية الحقوق مكتبة ضخمة، العجيب أنها لم تَكنْ يومًا من الجماعة، وهذا أمر جلل في قريتي، كيف كان لها أن تفلت من براثنهم، خاصةً أنهم يلقون شباكهم أكثر حول الطلاب؟

ففي تلك الفترة في منتصف التسعينيات من القرن الماضي لم يَكنْ يخلو بيت في قريتي من عضو أو اثنين داخل الجماعة، تواصلتُ مع تلك الجارة وكانت تمدّني دائمًا بالروايات والقصص مثل: (توماس مور، شكسبير، تشارلز ديكنز).

أذكر أني قرأتُ تشارلز ديكنز في العام 1996م، كنتُ حينها على مشارف الالتحاق بالمدرسة الإعدادية.

مثَّلَتْ لي مكتبة المدرسة ومكتبة جارتي العَون على مسعاي؛ الباحث عن المعنى لتلك الحياة، لكن رحلة البحث تلك عادتْ بالسلب على

دراستي، وتحولتُ من قائمة المتفوقين إلى قائمة الأغبياء، القليل من مدرسي المرحلة الثانوية كانوا يروني مختلفًا، خاصة أستاذي التاريخ واللغة العربية.

لم تَكنْ الصورة قد تشكلتْ بعد وأنا في تلك المرحلة، فلم أُترجم أحاسيسي حينها على أنها بداية الخروج من الدائرة، إنما ترجمتها أنها ضعف عقيدة، وإيمان أضحى هزيلًا ويجب تقويته، هكذا تعلمنا.

السؤال عن بعض الأمور داخل التيار الديني عامةً يُعد ضَعفًا في العقيدة وجب مداواته. يقولون إذا تعارض النص مع العَقل قدِّم النص على العَقل، وقد كنتُ أجد صعوبة في تقديم النص.

أي أن إيماني بعقيدة أهل السُنة إيمان منقوص، لهذا كنتُ أسعى لتقوية إيماني بالاستزادة من الصلاة والقيام وقراءة القرآن.

حدث في مرحلة من مراحل الترك أن مرَّ عليّ عام كامل وكأنّي راهب يحيا في صومعة، قيام وصلاة وقرآن ودعاء، كنتُ أسعى لقتل تلك الوساوس؛ لأنْ أشدَّ من أزري الواهن، كما أخبروني، كنتُ في عزلةٍ تامة عن كل ما هو دنيوي.

كنتُ دائمًا ما أسعى للتطهر من هذا الرجس والنجس الذي تفشى في مجتمعاتنا، غناء وفن وحُب وملهاة عن ذكر الله.

سوى أني لم أُدركْ إلَّا حديثًا أنهم هم الواهنون، قال النفري: «**كلما اتسعت الرؤية ضاقت العِبارة**» هل كانت عِبارة الجماعة أضيق من رؤيتي؟!

***

كنتُ قد اشتريتُ أحد أشرطة الكاسيت والذي يحوي خُطبة لأحد الدعاة المشهورين والمحسوبين على التيار المعتدل، كان يتحدث في تلك الخُطبة عن القراءة وأهميتها، وأخذ الشيخ يُصنف أولويات القراءة.

لم ترقَ لي كلماته، فالقراءة لا تُقيدها أولويات، أخذ يعدد تلك الأولويات بادئًا من القرآن الكريم بالطبع، ثم كُتب الحديث فالفقه فالسِيرة، وذَكر عشر مراتب للقراءة، وكان الأدب في المرتبة العاشرة.

بل وشددَّ على عدم الانجراف في تلك القراءة الأدبية إلَّا فيما يخدم المراتب الأخرى، ذلك أنها قراءة غير ذات أهمية.

كان هذا الكلام يُسبب لي ألمًا لكوني أعشق الأدب بكل درجاته، خاصةً فن الرواية، بل إنني أزيد في انحلالي وفسقي وأقرأ آدابًا مترجمة لروائيين كفّار وملاحدة! حاولتُ أن ألتزم بما وَرَد في تلك الخُطبة وقررتُ أن أنفض عني هذا الذنب.

توجهتُ إلى مكتبات الكتب الدينية واشتريتُ عِدة مجلدات في الفقه والسِيرة والتفاسير وعدتُ بها للمنزل، وضعتُها أمامي وحاولتُ جاهدًا أن أقرأ ما قال عنه الشيخ إنه الفَلاح.

أمسكتُ بأول كِتاب وكان في السِيرة النبوية للشيخ الليبي (محمد علي الصلابي) بعد أن قرأتُ بضع صفحات وجدتُ الشيخ فجأة قد خرج عن السياق وأرسل كلمات تكفيرية وجهها إلى التيار العلماني.

فور أن وقعتْ عيناي على تلك الكلمات قمتُ بإغلاق الكِتاب، أمسكتُ الآخر فكان على نفس النهج، الرافض لكل ما هو غير ما يبتغون، تركتُ تلك القراءات وذهبتُ إلى المكتبة واشتريت رواية (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ.

كانت قد صدرت منها طبعة حديثة بعد سنوات من المنع، ذهبتُ إلى درس القرآن وأنا أحمل في يدي تلك الرواية، وكانت تلك هي المَرة الأُولى التي أجهر فيها بميولي في القراءة المخالفة لما يقرؤون.

فما كان من زملاء الحلَقة إلَّا أن نهروني لأنني اشتريت رواية لهذا الأديب الكافر، ومال عليّ أحدهم وأخبرني أنَّ هناك كتابًا لأحد شيوخ السعودية صدر حديثًا يتحدث عن الكتب التي حذر منها العلماء، وكان يحمل في يده أحد تلك الأجزاء.

أعطاني الكِتاب وكان بعنوان (كُتب حذر منها العلماء) لكي أقرأه وأنقذ نفسي من تلك الضلالات!

***

المرحلة الثانوية كانت مرحلة من الثراء لا تُقارن بأي حال من الأحوال بأية مرحلة أخرى، فالمذاق الأول لكل شيء يكون له صدى أوقع، وفي تلك المرحلة كان المذاق الأول لألوان حياتية عدة.

ولو أمكنني أن أُقدم الشُكر لشيء ما لقدمتُ الشكر لمكتبة تلك المدرسة التي احتوتني بأرففها التي غزَّت عقلي حينها بما احتوته من مئات الكُتب.

ولأن للمدينة أخلاقًا تختلف نوعًا ما عن أخلاق القرية، فقد نصَّبتُ نفسي نبي تلك المدرسة التي جاء لينشل طلابها من الضَياع.

تلك الخُطب العصماء التي كنتُ ألقيها على الطلاب في فصلي عن الجنة والنار والطاعة، عن فلسطين وحربنا مع اليهود، كان الأساتذة إن أرادوا أن يهربوا بأعصابهم من حصة مملة طلبوا مني الحديث مع

الأصدقاء عن هذا الدين الجديد.

كنتُ أُبشرهم بدعوة الجماعة، بهؤلاء الذين جاءوا لينشلوهم من الضَياع، وكان هذا الأمر يُسمي في الجماعة (الدعوة الفردية)، فأنت مطالب دائمًا بإحضار أحدهم لإعانته على الهِداية والعودة من ضلاله.

ولم يَكنْ يعني أساتذتي حينها تلك المسألة. اثنان فقط هم من واجهوني، وكانوا دائمي التحذير من خطورة انضمامي لتلك الجماعة المحظور نشاطها، لكن لم أَكنْ أكترث بتحذيراتهم فقد كنتُ أسير في طريق الجنة!

ولأن احتياجي للمال وأنا طالب في المرحلة الثانوية كان يُسبب لي أرقًا إلى جانب ضيق حال أسرتي الذي كان يمنعهم أن يُلبوا القَدْر الطبيعي من احتياجاتي، فقد عرَض عليّ أحد شباب الجماعة الأكبر مني سنًا، والذي كان يملك مكتبة لبيع الأدوات المدرسية والأشرطة الدينية والكُتيبات الإسلامية أن أبيع تلك الأشياء للطلبة في مدرستي.

وقد كان. كنتُ أذهبُ إليه يوميًا لإحضار ما يتسنى لي حمله من الأشرطة والملصقات التي تحمل أذكارًا وأدعية وأعمل على بيعها بين أصدقائي في المدرسة.

كان هذا الأمر يُدر دخلًا لا بأس به حينها، كانت نسبة الأرباح تعادل ضِعف الثمن الأصلي في أحيان كثيرة، فأنت تشتري تلك الأشياء بأثمان بخسة وتبيعها كما تشاء ولن يعارضك أحد.

فهل لأحدهم أن يساومك في سِعر أشرطة دينية للشيخ (محمد حسان أو حسين يعقوب أو أبو إسحاق الحويني)؟ ستكون هذه علامة على ضَعف إيمانه ونقصان دينه، هو يشتري ويدفع وكأنه يتصدّق بهذا

المال.

وليست هذه تجارة في نظره، هي أموال تخرج في سبيل الله للتزود من عِلم الله. وبدأتْ أُولى ملامح استغلال الدِين تتشكل في عقلي.

رغم أنها مصالح وتجارة، إلَّا أنَّ هيئتي الدينية وحديثي المفعَم بالإيمان كان يُلهي المشترين عن مكاسبي التي أجنيها من ورائهم، وكان يعطيني الأمان أنَّ أحدهم لن يسرقني أو يُجهدني في الحصول على مالي.

أما المال الذي كنتُ أجنيه فكنتُ أشتري به أنا الآخر تلك الأشرطة والملصقات، أنا أيضًا رغم إدراكي للأمر كنتُ أشتري تلك الأشياء باعتبارها أمورًا أتقرب بها إلى الله!

ضَعْف مستواي الدراسي حينها، تسبب في نفور الطلبة والأساتذة مني. وكان إدراكي لدور الدِين في استقطاب اهتمام الآخرين من أجل سد هذا النقص قد جعلني أتمادي لا إراديًا في استخدامه، فأخذتُ أُظهر المسألة.

هذا بالإضافة إلى مشاركتي في برنامج الإذاعة المدرسية، كنتُ مختصًا باستحضار حكمة يومية لأحد الحكماء أو الفقهاء وإلقائها على الطلبة. هذا الأمر ساعدني لأن أتدرج سريعًا في موقعي في الإذاعة المدرسية حتى صِرت المسئول عنها.

كنتُ يوميًا أُلخص الأحداث الجارية على الساحة السياسية في بضعة أسطر، ثم أقرأها على الطلبة في الإذاعة المدرسية، بعد أن أصبغها بالصبغة الإسلامية، من باب أنقِذوا غزة، وجنين تُقتل، أفغانستان تُمزّق، العراق يُحتل.

ولم أَكنْ أبذل العناء لتلخيص أحوال الفقر والجهل والمرض المتفشي، فتلك الأمور لم تَكنْ موضع اهتمام داخل دوائرنا.

كنتُ أستعين بتلك الملصقات التي أبيعها في أموري تلك، حيث كنتُ أحضر باكرًا إلى المدرسة ومن ثَم أضع بعض تلك الملصقات للشهيدة إيمان حجّو الفلسطينية ذات الأربعة أشهر، وأخرى للطفل محمد الدرة الذي قُتل في حُضن والده.

ولم تَكنْ تمر دقائق حتى يأتي مدير المدرسة مسرعًا ليرى من ارتكب تلك الفعلة النكراء، ويأمر بنزع الملصقات، فيأتي اليوم الذي يليه فأضعها مرةً أخرى.

لمّا اشتدَّ الأمر وأضحيتُ أتمادى في الهجوم على سياسات أمريكا واليهود ضد المسلمين، ولما أضحتْ الإذاعة المدرسية ذات معنى بعد أن احتلّها شباب الجماعة، قرّرتْ إدارة المدرسة تغيير المسؤول عن الإذاعة بمسؤول آخر.

كان يحاول التقليل من وطأة أفعالنا نوعًا ما، إلَّا أنَّ تمادي الآلة العسكرية الإسرائيلية في قتل مسلمي فلسطين وخروج العديد من المظاهرات في مدارس مصر تضامنًا مع انتفاضة فلسطين في العام 2001م، دفعني لأن أُقيم يومًا مشهودًا في الإذاعة حينها.

أعددتُ بضعة أسطُر كانت أقرب إلى السبِّ والقذف في الغرب الكافر، وأثناء خِطابي في الإذاعة قامتْ إدارة المدرسة بفصل الكهرباء عن الميكروفون محاولين منعي من إكمال خِطابي.

غير أني لم أنته، فتقدمت إلى منتصف الفِناء الخاص بالمدرسة وأكملت خِطابي بصوتٍ جهوري ارتجّت له أركان نفسي، فوجدتُ مدير

المدرسة وقد أسرع إلى الميكرفون –الذي أعادوا إليه الكهرباء– وأخذ يردّ على ما قُلت كلمة بكلمة، وينعته بأنه كِذب وافتراء وأنني لا أفقه من أمري شيئًا.

وتم اصطحابي إلى غرفة المدير وأخبرني المدرس المسؤول عن الإذاعة أنَّ رجالًا من أمن الدولة قد حضروا إلى المدرسة لِما وصلهم من إثارة بعض القلاقل من جانب بعض الطلاب.

وأنهم يخشون علينا باعتبارنا أبناءهم، وأنهم سيعطوننا فرصةً أخيرة للعودة من هذا الطريق الذي لن يقودنا إلَّا إلى كل شر.

بمجرد أن خرجتُ من غرفة المدير صعدتُ إلى فصلي الدراسي وأخذتُ أُحَدّث بعض زملائي عن أننا يجب أن يكون لنا دور في هذا الذي يحدث، ضاربًا بعرض الحائط تهديد أستاذي وكلامه عن أمن الدولة.

طلبوا مني حينها كتابة بعض الهتافات، وكان القرار أن نخرج في تظاهرة بعد انتهاء اليوم الدراسي. لم تكدْ كلمة تظاهرة تَرد على مسامعي حتى أصابتني تلك الرجفة من جديد، وعادتْ الرعشات إلى يدي وقدمي.

لقد طلبوا مني أن أتقدمهم، ولكني خذلتهم، بمجرد انتهاء اليوم الدراسي تركتهم وذهبت، ولكنهم نفَّذوا عمليًا على أرض الواقع ما جبنت أنا عنه حينها.

هل حقًا جبنت؟ أم أنه الخوف من القيادة الذي حبَّب إلى قلبي أن أكون تابعًا لا متبوعًا؟ أم أنني أردتُ أولًا أن أستأذن من شيخي؟ لقد خرجتُ في مظاهرات عِدة، إلَّا أنه في تلك المَرة كان لِزامًا علىّ أن أُقرر وحدي دون الاستعانة بأحد، ولكني عجزتُ عن اتخاذ قراري منفردًا.

في اليوم التالي حضرتُ إلى المدرسة غير أنَّ العديد من أصدقائي لم يحضرْ. وصل إلى مسامعي أنها كانت معركة حقًا مع رجال الشرطة، فبعد أن خرج طلاب مدرستي الثانوية إلى الشارع للتظاهر انضم إليهم طلبة المدرسة الإعدادية وطلبة المدرسة الثانوية الفنية والتحموا في مسيرة حاشدة.

لم تتركهم قوات الأمن كثيرًا، ذلك أنَّ مدرستي كانت تُجاور منطقة عسكرية وليست ببعيدة عن قسم الشرطة. فور أن وصلتْ المسيرة إلى الشارع الرئيسي تم حصارهم وما لبث العَسكر أن هاجموا المسيرة وأعملوا هراواتهم في أصدقائي واعتقلوا بعضهم.

وكان منهم صديقي من نفس الصف الدراسي، والذي حكا أنه وجد نفسه كمن سقط في كماشة بعد أن حوصرت التظاهرة برجال الأمن ففر إلى أحد الشوارع الجانبية مع أصدقائه ليجد الأرض وقد انشقتْ عن رجال بملابسٍ مدنية وبدؤوا يضربون بكل ما تطله أيديهم.

ويسترسل قائلًا: أنه وجد بعض رجال الأمن وقد تكالبوا على فتاة من طلبة المدرسة الثانوية فألقى نفسه عليها ليحميها من الضرب، وكان نتيجة ذلك أن قضى يومًا كاملًا تحت وطأة الاعتقال ولم يَنقذ صديقي حينها إلَّا أنه كان قريب لأحد رجالات الأمن الكبار في وزارة الداخلية حينها.

تملكتني الحسرة واعتراني الندم لأنني تهاونتُ في حق أصدقائي، كان يجب أن أتصدرهم في التظاهرة، فأنا من بدأت المسألة، وتركي لهم الآن لا ترجمة له سوى أنه نفاق. هل يقول أعضاء الجماعة ما لا يفعلون، أم أنَّ هذا أمر خاص بي؟

حضر أصدقائي بعد يومين من الحادثة وكانوا يسيرون وقد بدا

عليهم أثر التعذيب. علمتُ منهم أنهم كانوا في المقدمة وأنهم نالوا الحظ الأوفر من الضرب بهراوات الشرطة.

لم أجدْ الكلمات التي أبرر بها موقفي، إلَّا أنَّ تعاملهم معي لم يجعلني في حاجة لتلك الكلمات.

لقد نسيتُ أنني الشيخ فلان، والشيوخ من المؤكد أنهم دائمًا على صواب، فهم لا يكذبون، ولا ينافقون، وهم أهل الله وخاصته.

أدركتُ للمَرة الثانية كيف أنَّ الأديان قد تجعل الحقيقة مشوهة لدى الأتباع، فأنت تعامل رجال الدِين على أنهم هم الدِين، وأن أي طعن فيهم هو بالضرورة طعن في الدِين، وحتى تهرب من الطعن في الدِين الذي قد يهوِي بك في نار جهنم فأنت دائمًا ما تجد لهم المبرر.

وهكذا سُحِلَ وضُرِبَ واعتقل أصدقائي وأضحيتُ أنا البطل وبكل سهولة، ودون عناء.

***

نشيد

كنتُ أطرب بالأصوات الجميلة، تأخذني لعوالِم أخرى، أشعر فيها بإنسانيتي.

يعود الفضل إلى أمي في هذا الأمر، على الرغم من كون أمي وكالعديد من أمهات القرى لا تعرف القراءة والكتابة إلَّا أنها كانت فنانة، تملك ذائقة يفتقد إليها الكثير من مثقفي اليوم، ومن أمي تعلمتُ أنَّ الفن والجمال فِطرة غُرزت في الإنسان، ومن الصعب قتلهما.

غير أنه من الممكن أن تصيبهما أتربة تُعيق الرؤية لدى صاحب هذا القلب المعطوب، ورغم كوني حافظًا للقرآن ودائمًا ما كان يسبق اسمي لقب الشيخ أو مولانا، إلَّا أنني عندما كنتُ أقف أمام صوتٍ جميل سواء لرجل أو امرأة كان يتلبسني شعور بالوقار، يرتقي بي نوعًا ما.

بالطبع كنتُ أُغالب هذا الشعور على اعتبار أنه محرم داخل دائرة الجماعة، غير أنَّ الشعور بروعة الفن كان دائمًا ما يُغالب دينهم، كنتُ أستيقظ كل يومٍ على صوت الراديو وهو يرسل تلك النغمات لأم كلثوم وعبد الحليم وعبد الوهاب وغيرهم.

كانت طقوس خاصة بأمي، بمجرد أن تستيقظ في الصباح تتوجه مباشرةً إلى الراديو وتُدير المؤشر وتتركه يُرسل دفقاته التي تأخذ بالألباب، حتى القرآن المُنبعِث من الراديو كان يأخذ بالألباب.

ولعشقي للنغم فقد نغمت أنا أيضًا، خاصةً عندما كنتُ أقرأ القرآن، كنتُ أقرأ القرآن بصوتٍ حسن، استخدم شيخي حُسن قراءتي ووظَّفها في جعلي عضوًا في فريق الإنشاد داخل الجماعة بالقرية.

كانت لحظات جميلة عندما تقف أمام الجميع وتبدأ في ترتيل أناشيد بنغمٍ يعلوه الإحساس، وأنت ترى الجميع يتفاعل مع هذا الطفل ذو الصوت الرقيق.

كان الإنشاد هو البديل عن الغناء الداعر المُحرَّم في الإسلام كما علمونا، أناشيد هي أقرب للمارشات العسكرية، جميعها تتحدث عن الجهاد والقتال والدعوة في سبيل الله.

أول مَن ساعدني على اكتشاف موهبتي في الإنشاد كان أستاذ اللغة العربية بمدرستي الابتدائية. هو نفسه الأستاذ الذي بصق في وجهي أو هكذا أوحى لي عندما أخطأتُ في مسابقة المتفوقين عن غير قصد، استخدمني تلك المَرة في الإنشاد أثناء حفل أقامته المدرسة احتفالًا بالمتفوقين.

من بعده، استطاع شيخي الأول داخل الجماعة استغلال هذا الأمر بالطريقة المُثلى، علا نجمي وبسرعة ظهرتُ بصورة جيدة داخل تلك الجماعة، فأنا مُنشِد معظم التجمعات واللقاءات.

كنتُ في الصف الأول الإعدادي عندما كنتُ أقف في المساجد مُغرِدًا أناشيد الصحوة الإسلامية، أو في اللقاءات المغلقة. أسعدني هذا الأمر جدًا.. كنتُ أُدندن تلك الأناشيد في معظم أوقاتي حتى وإن لم يكنْ هناك مَن يسمعني.

في العام 1998م أقامتْ مدرَستي حفلًا غنائيًا. كنتُ مشارِكًا في هذا الحفل. أستاذ التربية الموسيقية كان في حاجة لبعض الطلبة يُقيم بهم الحفل ليظهر بالصورة المناسبة أمام بعض مسؤولي الوزارة ممن سيحضرون الحفل.

كنتُ واثقًا من أدواتي فأنا منشِد قريتي، جميع شباب قريتي يُقرّون بصوتي الجميل الذي يُغَلِفه الطرب الأصيل.

غير أني لم أُدركْ أمرين، أولهما: أنَّ مدرستي الإعدادية كان مقرها بكَفر مجاور وأغلب طلابها لا يعرفونني، ثانيًا: أنَّ الحضور معظمهم أساتذة تربية موسيقية ومتخصصون في هذا المجال.

ولكني أدركتُ الأمرين فور أن بدأت أنشد مباشرةً، ذلك أنه قد تعالت ضحكات الجميع، حتى أنَّ أحدهم قد سقط على الأرض من شدة الضحك.

تعجبتُ من الأمر، ربما كان عبث الطفولة الذي يُغلف تلك المرحلة، نظرتُ إلى أستاذي غير أنه أشار لي أن أكمل، أخذتُ أُردد النشيد في نفس الوقت الذي ظلت فيه الضحكات.

شعرتُ أنَّ هناك أمرًا ما، غير أني لم أَكنْ أتوقع أنَّ صوتي بهذا السوء، الجميع في جماعتنا أخبرني أنَّ صوتي جميل، هل كذبوا عليّ؟! إلَّا أنهم شيوخ، والشيوخ لا يكذبون.

عدتُ لأكمل فقرتي، صاحَب ترتيلي للنشيد بعض قطرات الدمع التي سقطتْ من عيني لتُبلل صوتي الذي أضحى حزينًا، صِرت أغني والجميع يضحك، وفي الخلف أنظر لأستاذي ليخبرني أن أستمر.

وفي نهاية إنشادي نظرتُ للسماء وكانت تلك هي المَرة الأُولى التي تمنيتُ فيها أن أموت، ولم تَكنْ الأخيرة.

لم أُصدقْ أنَّ صوتي بهذا السوء، وإلَّا فَفِيمَ كانت تلك السنوات الثلاثة التي غردتُ فيها في معظم احتفاليات الجماعة في قريتي؟ هل

كذبوا عليّ؟ لا، لا، ربما كنتُ مُرهقًا فلم أُحسن الإنشاد، وربما كان الطلبة يضحكون من شيءٍ آخر.

لم أعدْ للإنشاد مرة أخرى بعد تلك الحادثة، لا أعلم لماذا؟ ربما لم أقوَ على أن أبلل صوتي بدمعاتي مرة أخرى! حتى قراءة القرآن بصوتٍ منغمٍ أوقفتها، صِرت أقرأ قراءة عادية كمَن يقرأ من جريدة.

مرتْ ثلاثة أعوام على تلك الحادثة حتى كان العام 2001م وكنتُ حينها في الصف الثالث الثانوي، وأثناء حضوري لصف التربية الموسيقية علمتُ من أستاذ المادة أنَّ الوزارة تُقيم حفلًا غنائيًّا بالاشتراك بين عِدة مدارس وأننا سنشترك.

دبتْ الطمأنينة بقلبي قليلًا عندما علمتُ أننا سنشترك ككورال خلف المُطرب، لم أَكنْ أود أن أمُر بتجربةٍ غنائيةٍ فاشلةٍ أُخرى. شدَّني الحَنين مرة أخرى لهذا العالَم، فقررتُ أن أتناسى ما كان وأن أحيا ما هو كائن.

غير أنَّ القَدر أبى إلَّا أن يضعني تحت قدميه مرة أخرى، ذلك أننا في أحد أيام المران استعدادًا للحفل حضرتْ مسؤولة من وزارة التربية والتعليم لمتابعة المران، وأثناء ترديدنا للأغنية حدث خروج عن النص فأوقفتْ المسؤولة المران وطلبتْ من كل منا أن يغني مقطوعته منفردًا.

وكانت الفاجعة، هل أضع نفسي في تلك السوءة مرة أخرى، ليتني لم أشتركْ في هذا الأمر من بدايته، لكني أحب الموسيقى حقًا ولم أَكنْ لأُفوّت أمرًا مثل هذا.

طلبتْ مني مسؤولة الوزارة عن النشاط الفني أن أُغني قطعة من الأغنية، وقد كان، لكنَّها أوقفتني مع أول كلمة، وردتني بكلمات رقيقة علمتُ من خلالها أنَّ صوتي ليس بالجيد، وأنه هناك أمور أخرى تُقنن

الصوت، فليس بالتنغيم وفقط يكون الصوت طَربًا.

كان عزائي حينها أنني كورال، أسند المطرب الأساسي في غنائه، فليس مطلوبًا مني أن أمتلك صوتًا جميلًا.

رأيتها وهي تُقوِّم طريقتي في الغناء، تُحدثني بشكلٍ أكثر تخصصًا ودرايةً، فهمتُ من حديثها أنَّ العَيب ليس في الصوت، إنما العيب في تقنين الصوت، في تمرينه على هذا الأمر، وتلك التمارين والتدريبات لم يَكنْ يهتم بها شيوخ الجماعة.

هناك أمور من المحظورات، وإن اضطرتْ إليها الجماعة فقد تأتيها بغير اهتمام فقط من أجل سد بعض الثغرات.

قد تَدَّعي الجماعة أنها لا ترفض الفن، والموسيقى، والتصوير، وأنها تقف عونًا له لا حائلًا ضده، لكن هل فكر أحدكم يومًا أن يستوقف شيخًا منهم ويسأله ما نوع هذا الفن الذي تبيحه الجماعة؟!

وفي الليلة المنشودة التي أُقيم فيها الحفل على مسرح المدرسة السعيدية بالجيزة وحضره حينها محافظ الجيزة، كنتُ أشعر وكأني إنسان غير الإنسان، وكأني تبدلتُ لشخصٍ آخر.

هذا العالَم الذي أحيا داخله، والذي يُحظر الاقتراب من أسواره وأنا داخل دائرة الجماعة، ها أنا أعيش الآن بين أفراده كواحدٍ منهم، وليس مجرد مُتفرجٍ من خارج الأسوار، كلما انتظمنا للاستعداد للحفل كلما انتظمتْ كل أركاني وتهيأتْ للحدث.

أين الرعشات؟! أين الخيالات؟! أين الخوف؟! هل هناك علاقة بين أن أُمثل الدور الحياتي الذي أعشقه وبين ذهاب رعشات أطرافي وخوفي؟

اصطَّففنا على المسرح وبدأ الغناء، ومع الغناء والعزف بدأتُ أشعر بأن هناك إنسانًا آخر يحل في هذا الجسد مع كل مَقطع موسيقي وكل نوتة موسيقية تعزف.

هل حلَّ في جسدي جسد آخر غيره؟ هل حلَّت بي روح أخرى؟ أم أني تطهرت من عبودية الماضي فوجدتُ نفسي؟

انتهى الحفل ومع آخر أغنياته وقف الحضور واشتدَّ التصفيق، كانت متعة لا تُعادلها متعة، متعة أنك قدَّمتَ أمرًا تحبه، وفي نفس الوقت هناك من يهنئك ولا ينهرك، بل ويهنئك بشدة ولا يُكفرك.

بالطبع لم يَكنْ شيخي على علمٍ بتلك الأمور، كنتُ قد أنشأتُ دائرتي السِرية التي تسير بالتوازي مع دائرة الجماعة، فأنا أقرأُ كُتبًا غير التي يقرأها شباب الجماعة، أسمع موسيقى غير التي يسمعونها.

أُشاهد أفلامًا سينمائية غير (عُمر المختار) و(الناصر صلاح الدين)، وفي أحيان أخرى كنتُ أُغازل ابنة الجيران لأقتنص منها بضع ضحكات تنهض بهذا القلب الذي كاد أن يموت من كثرة أن أبغضوا إلينا النساء.

وكيف أنهم يُذكرونا دائمًا بخطورة الاقتراب من هذا العالَم الذي لا طائل من ورائه سوى الخُسران.

كان أمرًا مثيرًا للدهشة والتناقض في الوقت ذاته، فأنا في الصباح أشترك مع فتيات في بروفات كلها غناء وعزف وموسيقى، وفي المساء أجلس في المسجد أقرأ القرآن وأُقيم الصلوات.

حتى أصدقائي في الأسرة كان لكلٍ منهم حياته السِرية أيضًا، وكان كل منا يتغاضى عن تصرفات الآخر في مقابل أن يتغاضى الآخر عن

تصرفاته. كان لهم حبيباتهم مِثلي ولهم نزواتهم وزلاتهم.

أحببتُ هذا العالَم حُبًا بالغًا، في دينهم يسمونه نفاقًا، وفي ديني أُسميه (هكذا يحيا الإنسان)، فكل ما يُدخل السرور على هذا القلب هو حلال، طالما لم يضرْ الآخرين.

وتذكرتُ مقولة أحد شيوخ الأزهر عندما قال: «**آتوني بما ينفع الناس و أنا آتيكم بالدليل الذي يؤيده من القرآن والسُنة**».

***

سؤال

يملك قدرة لا تُبارَى في استحضار البكاء، لم يفوّتْ ملتقى ولا تجمعًا إلَّا وحضر، ولم يفوّتْ لحظة استحضار لتجليات الروح إلَّا بكى، حتى وإن لم يَكنْ هناك مدعاة لاستحضار تلك التجليات.

يكفي أن تقرأ عليه بضع آيات من القرآن أو أن تُطفئ الأنوار وترفع يديك إلى السماء مبتهلًا بالدعاء وعليه هو أن يُذرف الدموع.

كنتُ أغتاظ منه في أوقاتٍ عدة، بل في كل الأوقات، فأنا لا أبكي في تجمعاتهم، على الرغم من كوني ذي قابلية للبكاء لا تُقارن، فأنا بكيتُ لأنني رأيت شحاذًا في الشارع مشفقًا على حاله، بكيتُ لأن أستاذ اللغة العربية أرسل لي شبه بصقه.

أما أن أبكي خشيةً لله، أن أبكي لأنني بين يدي الله، أن أبكي لأنَّ أحدهم نظَّم بضعة سطور من الأدعية وألقاها بصوتٍ عذبٍ، أن أبكي لأنَّ البكاء من خشية الله يُدخل الجنة. هل لم أَكنْ مثل هذا الشاب الذي ملأ الدنيا ببكائه؟

هو أحد شباب الجماعة الذين أُلحقوا بهذا التيار في نفس توقيت انضمامي، كنتُ إذا شاهدته في أحد تجمعاتنا قلتُ في سري ها قد حضر البَكَّاء.

قلتُ ربما أنَّ هذا الشاب قلبه أكثر رهافة من الجميع، فهو وبضعة آخرين فقط مَن يبكون، وفي خضم تلك الدموع التي أغرقتْ الحضور كنتُ أقف متسائلًا، لماذا لا أبكي؟!

وكان سؤالًا دارتْ رحاه في حياتي طويلًا، هل لا أملك خشيتهم؟ هل لا أملك إيمانهم؟ أم أنني لا أملك دموعًا من الأساس؟!

كانت حياتنا للدعوة، وبالدعوة، كنا نحيا حيوات غير حيواتنا، فيجب أن نكون كأبي بكر في رِقة قلبه، وعُمر بن الخَطاب في شدَّته من أجل الحق، وأسامة بن زيد الذي قاد جيشًا وهو ابن خمسة عشر عامًا.

أرادوا لي حياةً أخرى، وأردتُ أنا حياتي التي بين جنبات هذا الجسد. كان ألم يعتصرني من أجل استحضار الخشية، من أجل استجلاء الحُب الذي ظننتُ أنه مُغطى ببعض الأتربة التي إن تمت إزالتها تحقق المراد.

وفي ليلة من تلك الليالي التي كنتُ أُقيمها بالصلاة وقراءة القرآن شددتُ على نفسي بالبكاء، اعتصرتْ عيني كي يفيض دمعها.

أطلْتُ الوقوف والركوع والسجود، صليتُ ركعتين بسورة البقرة كاملة، أردتُ استحضار تلك الخشية، أردتُ استحضار الحُب الإلهي، وبعد طول معاناة ذرفتُ بضع دمعات سالتْ على وجهي.

بضع دمعات لكنَّهم أشعروني بغصة في الحلق أفقدتني توازني، تلمست ألمهم، ولكني لم أتلمس الخشية أو الحُب، تلمست الألم في العين، غير أني لم أتلمس النور في القلب.

تمثَّل البكاء لدي في صورة الإحساس والشعور الذي أنتظره، فإن جاء جئتُ، وإن غاب غبتُ، لقد أسلمتُ بانضمامي لصفوف الجماعة، أنا الآن في زُمرة المؤمنين، تلك الفرقة الناجية من النار، فلماذا إذًا لم أستشعرهم بعد؟

جاءتني إجابات عدة من المشايخ والإخوة، لكنَّها لم تلمسْ بيت

القصيد، قلتُ لنفسي إنه وقبل أن تطلب مني عملًا يجب أن تتيقن أولًا إن كنتُ أملك القدرة على الإتيان به من عدمه. حتى وإن ملكتُ القدرة فيجب أيضًا أن أملك المعرفة.

تذكرتُ تلك الأمور التي كان من المفترض أن أفعلها، أنا الآن طفل في المدرسة الإعدادية ومطلوب مني ألَّا أكون في درجة أقل من (أسامة بن زيد أو علي بن أبي طالب أو عمرو بن الجمُوح)، كلهم كانوا في سِني يسبقونني بعامٍ أو عامين غير أنهم كانوا أبطالًا، وكانوا دعاة.

كنا نقف في المساجد ونحن أطفال نتصدر المشهد أمام المصلين، نمسك بالميكرفون ونحمد الله على فضله ونثني عليه ونسبِّحه ونخطب في الحضور مطالبين إياهم بتقوى الله.

أُطالبهم بشيء أنا أصلًا لا أعرفه، كنتُ أتساءل: ما المَغزى أن نتصدر المشهد؟ أكان من أجل أن يتعجب المسلمون من هؤلاء الصغار الذين أتوا ما لم يأته أحد من العالمين؟

إن كان فنحن إذًا نقوم بما لا يقوى عليه بشر، وليس بمفروضٍ على المسلم الطبيعي، وإن لم يَكنْ فإنَّ هناك عوارًا في هذا الدين لا يتناسب مع قدرات الأطفال، ومراعاة تطورات القدرة على التحمل مع اختلاف الزمان والمكان.

فأسامة بن زيد من نشأ في الصحراء وبين عشرات الآلاف من الصحابة من المُحال أن تقارنه بطفل تربى على مسلسلات الكارتون وقصص ميكي.

***

عندما كنتُ في الصف الثاني الثانوي طلب مني شيخي أن أساعده على تحفيظ القرآن في كُتَّاب القرية، فكنتُ طفلًا يُحفظ أطفالًا.

ولم يعفني من هذا الأمر إلَّا أنني في لحظة انفعال قمتُ بسب إحدى الفتيات اللاتي كنتُ أُحَفظهن فتم إعفائي من تلك المهمة الجليلة التي رأوا أني خسرت كثيرًا بفقدها.

بعد عام ونصف من تلك الحادثة طُلب مني أن أتصدر الإمامة في أحد المساجد على اعتبار أني حافظ للقرآن، اعتقدتُ الأمر هينًا فقبلت، أذَّن المؤذن لصلاة الفَجر فتوجهتُ للمسجد وأعددتُ نفسي للصلاة.

وقفتُ أمام القِبلة منتصبًا ورفعتُ يدي في محاذاة أُذني واستحضرت جلال المشهد وقلتُ: «**الله أكبر**»، مؤذنًا ببدء الصلاة، وكانت تلك التكبيرة هي الشيء الوحيد الذي قلته في تلك الصلاة.

شعرتُ بأن أمرًا أخذني وضرب بي الحائط فردَّني إلى مكاني ومن ثَم تكرر الأمر، الأخذ والضرب فالرد وأنا أقف مذهولًا من هول الموقف، فليس الأمر بالهَين، ليس مجرد وقوف ولا حركات تؤدَي، ولا كلمات تخرج منغمة في الصلاة.

من المعتاد أن ينسى الإمام آية أو كلمة من السورة التي تلي الفاتحة، أما أنا فنسيت الفاتحة نفسها.

وقفتُ هنيهة، أصابني الذُعر، أين الفاتحة؟ أين ما كنتُ أحفظه عن ظَهر قلب؟ وجدتُ الأصوات تُرسل من خلفي تباعًا مذكرةً إياي، وأخذ المصلون خلفي يُذكروني بالفاتحة آية آية.

ثم جاءتْ السورة التي تليها، فاخترت بضع آيات من سورة البقرة كنا نرددها دائمًا في أوراد يومية وهي سهلة الحفظ، غير أني أيضًا نسيتها، ولكن لم يردّني أحد كما ردوني في الفاتحة، هم يحفظون الفاتحة وفقط، لو كان أحدهم يحفظ سورًا أخرى ما تصدرتُ أنا للمشهد.

طال الصمت، فتركتُ آيات سورة البقرة واستعنتُ بآياتٍ من سورة النساء، وأنهيتُ الركعة الأُولى، أما الركعة الثانية من صلاة الفَجر فلا أتذكر ما كان، وكأن تلك الصلاة كانت ركعة واحدة وفقط.

أنَّبْتُ نفسي على ضَعفي ومعصيتي، فأنا من سيُصلَى به نار جهنم، أنا وقودها، فلا بكاء ولا خشية ولا قرآن ولا صلاة.

وفي يوم ضاقتْ عليّ الأرض بما رحُبت دخلتُ غرفتي وأغلقتُ بابها وألقيتُ هذا الجثمان الميت على السرير ولم أستطعْ حينها أن أمنع ذلك السيل من الدمع المنهمر.

وجهتُ وجهي لأعلى وكأني أُخاطب السماء وصرختُ قائلًا: أين أنت؟ هل تتلذذ بتعذيبي؟ لماذا خلقتني إن كنتَ ترفضني؟ لماذا أتيتَ بي إلى تلك الدنيا إن كنتُ أنا لستُ بأهلٍ لها؟

إن كنتَ راضيًا عني فأعني على نفسي، وإن كنتَ تبغضني فخُذ روحي الآن فلا فرق عندي بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فكلهم في الأصل جحيم.

وبكيتُ، غير أني لم أبكِ خشيةً، ولا طاعةً، بكيتُ شفقةً على حالي.

وفي تلك اللحظة التي انتظرت فيها الدمع طويلًا لأستشعر لذة الطاعة والخشية من الإله، وجدتني أبكي ولكن لا لأزيد الوَصل، إنما لأروي

بدمعي بِذرة التَرك التي أخذتْ تدب في أوصالي وتشرع في نشر جذورها في جنبات هذا الجسد.

بذرة تُصارع من أجل الخروج، لتصير من ثَم شجرة أجهزتْ بثقلها على خرافات تربيتُ عليها، خرافة أنني يجب أن أعيش حياةً أخرى غير حياتي فقط لأنهم المبشرون بالجنة.

لن أكون زيدًا ولا عُمر ولا أبا بكرٍ، فقط أُريد أن أكون أنا، قد أنظر لهؤلاء نظرة من يتلمس طريقه مهتديًا بنورهم في الحياة، لكن ليست نظرة الممثل الذي يحيا دورًا آخر غير الدور المنوط به في الحياة.

أدركتُ أنَّ المسألة ليست في كَوني لا أملك خشيتهم، أو أنني لا أملك طاعتهم، أنا فقط أرى أنه من البلاهة أن أبكي من خشية إله لا أعرفه، أن أُطيع ربًّا لم أدركه.

كنتُ أتعجب من بعض القصص التي تُحكى لنا ونحن نرى الراوي يكاد يبكي من فرط اللَّذة من روعة هذا الرَجل أو تلك المرأة من السَلف الصالح ممن عرفوا الله وأدركوا عظمته.

وجميع تلك القصص على هذا المنوال، ولم يُكلِفْ أحدهم نفسه ولو للحظة أن يسأل نفسه وماذا بعد؟ هم كانوا عظماء لأنهم أدركوا كنه الإله، أما نحن فنصنع عظمتنا على إدراكهم هم وليس إدراكنا نحن، بئس الإيمان هذا.

هل فكَّر أحدنا يومًا أن يسأل نفسه: من خلق الكون؟ وكيف خلقه؟ وإن صدَّقت أن الكون لم يُخلق من العَدم وأنَّ الله هو خالقه وأنه لابدَّ من خالق فمَن خلق الله؟ وإن قلتُ هو الأَزَلي فأنت تضرب بعرض الحائط أنه لا يوجد خلق من العدم.

فالله خالق وليس مخلوقًا. جرب وحاول أن تسأل وفقط، أنا لا أطلب انتظار إجابة، أتمنى لك أن تملك رفاهية السؤال، تلك أسئلة من المحرمات، بل يهوي بها الإنسان في النار سبعين خريفًا.

أنت تطلب مني أن أبكي خشيةً من عظمة إله لا أعرفه، أنا فقط مُطالَب أن أُصدِق على كلمات مَن عرفوه منذ أكثر من ألف عام!

***

داعية

مع اقتراب العام 2000م أحكَم النظام الحاكِم قبضته على الجماعة، وضيَّق عليهم الأمن دوائرهم، وأُغلقتْ المساجد في وجوههم وتحوَّلنا فجأة وكأننا نغتصب حقوقنا.

لم نَعدْ نجتمع في المساجد كما كنا، وأُغلقتْ أبوابها في وجه مُحفِظي القرآن من الجماعة، حتى هذا اللقاء الأسبوعي والذي كان يجمعنا بالشيخ لتدارس أمور الدِين أضحى وكأنك ذاهب لارتكاب جريمة.

فنحن نذهب فُرادى ونصعد لمنزل الشيخ بحَذرٍ، وفور أن ينتهي الدَرس لا نخرج جماعةً، بل فردًا فردًا، وننصرف فورًا ولا نتجمع أمام منزل الشيخ، وكان أعضاء الجماعة في قريتي يقضون في المعتقل أكثر مما يقضون في منازلهم.

هذا الضغط الأمني الذي لم يَعدْ يُعطينا مساحة للتدارُس والاطلاع مع تمرُدي على بقائي داخل الدائرة، بالإضافة لرؤية الجماعة أنني لن أستمرْ بين ظهرانيهم وأنني لستُ بذي فائدةٍ دفعني لأن أبحث عن نفسي خارج معسكرهم.

رأيتُ أخي الذي يكْبُرني بعامين يدعوني للصلاة، من المعتاد أن يدعوك أحدهم للصلاة.

أما أن يَكون أخي الذي شيَّب أبي وأرق علينا لياليا، ذلك الذي لم تسلمْ منه فتيات القرية والقرى المجاورة من مُغازلةٍ وتتبعٍ، من وَرَد أبواب الرجال باكرًا فشرِب سيجارته الأُولى وهو ما زال ابن الأربعة عشر عامًا، أن يحدث هذا من أخي فإنه لأمرٍ عُجاب.

بمرور الوقت هدأ طبع أخي وصار السِواك لا يُفارق فاه، والأذكار لا يخلو منها لسانه، والمصحف دائمًا في يده.

كلما تذكرتُ ضحكة أبي الساخرة من كونه لا يُصدِق عينيه ولا يملك إلَّا أن يقول «**تلاقيه عاوز يصاحب واحدة مُلتزمة**» كلما تعجبتُ من هذا الذي حوَّل أخي هكذا في لحظة من النقيض إلى النقيض!

لم يُخفَ السِر طويلًا، حضر صديق لأخي كان قد التزم هو الآخر حديثًا، والاثنان لا يزالان في الثامنة عشر من عمريهما، وشدا الرحال إلى أحد المساجد بحي العجوزة.

قلتُ أذهب معهم لعلَّني أجد بغيتي لدى هذا الشيخ الذي يملك عَصاه سحرية تُحوِل العُصاة فجأة إلى ملائكة.

على الرغم من كون محاضرة الشيخ بعد صلاة العِشاء إلَّا أننا توجهنا إلى المسجد قبل هذا الموعِد بساعاتٍ.

علمتُ من أخي أنَّ هذا الشيخ رواده كثيرون، ولكي نتمكن من الجلوس قريبًا فعلينا أن نذهب باكرًا عن موعد الدَرس.

هالني الأمر منذ وضعتُ قدمي داخل المسجد، فالحضور في أغلبهم شباب، أعمار صغيرة، ولا ترى السمت السَلفي الذي دائمًا ما يغلب على مُريدي الندوات الدينية.

أخذتُ موقعي على يسار المنبر وانتظرت. فجأة وجدتُ شابًا يضع يده على كتفي طالبًا أن أفتح له طريقًا للمرور، فعلتُ وتقدم وإذا بي أراه يتجه صَوب القِبلة ويجلس على الكرسيّ المخصص للداعية.

سألتُ نفسي حينها: أهو هو؟! ما لبث أن تأكد لي الأمر، غير أنه ليس

مُطلِق اللِحية كما تعودنا.

أضفْ إلى ذلك أنه لا يرتدي هذا الزي الذي يُميّز رجال الدِين، بل يرتدي ملابس إفرنجية لا تُفَرِقه عن أي شاب يجلس في المسجد، بل والأدهى من ذلك أنه ثلاثيني العُمر.

كنتُ مأسور الفؤاد بذلك الشاب في تلك الفترة من حياتي، يكفي أن يتحدث حتى ينقلب حالي من حالٍ إلى حال.

تَبِعته في ثلاثة مساجد مختلفة. كان في كل مَرة يُخبرنا أنه ذاهب لقضاء العُمرة، إلَّا أنه يذهب ولا يعود، ونعلم من ثَم أنه قد تم منعه من قِبل أمن الدولة، ومن ثَم يعود ولكن في مسجدٍ آخر، ونعود معه لنكتشف أن رواده أضحوا أكثر من ذي قبل.

ويأتي الموعد فيذهب لقضاء العُمرة كالعادة ولا يعود. وكنتُ أنتظر عودته وكأني أنتظر الخلاص، كنتُ أتشبثُ بهذا الداعية الشاب وكأنه طوق النجاة.

كان ليّن الجانب، وذو خِطاب إنساني، تعلو كلماته أمارات الترغيب لا الترهيب، وكان إلى جانب ذلك دائم التأكيد على أننا الأمل، الشباب هم الأمل.

كنتُ أندهش من هذا الذي يُراهن على مراهقين، ويَقْسِم أنَّ النصر قادم على أيديهم، بل وعلى أيدي هذا الجيل بالذات.

ويعود من جديد في مسجدٍ آخر، وينتقل الداعية الشاب من مسجد إلى مسجد وأنا أتَّبِعَه كظله وكأني أنتظر الإجابة، وينتقل هو من محاضرةٍ إلى أخرى تدور كلها في فلك الترغيب في الطاعة والالتزام.

ويأتي فاصل الدعاء فيبكي الجميع إلاي، أنظرُ إليهم وألقي التهم على نفسي، إنني أنا العاصي ذو القلب القاسي.

كنا في رمضان وكنتُ أجلسُ في الصف الأول ناحية مدخل المسجد، رأيته يتقدم منفردًا ويدخل من الباب، لا حائل بيني وبينه، هل هي صُدفة ألَّا ينتبه إليه من بين أكثر من ثلاثين ألف مُصَلٍ إلَّا أنا؟

قمتُ إليه ونويتُ أسأله عن حالي، سلَّمتُ عليه وهممتُ أن أسأل، غير أني لم أقوَ على الحديث، هل هالني الموقِف؟ وهل بذلك أكون قد ضيّعتُ أمرًا لن يتكرر لمثلي؟

صَمْت وفي لحظة صَمتي تلك أَدرك المصلون قدومه، فتلاشتْ الفُرصة سريعًا ورأيتني أبتعدُ ليحل مكاني آخرون، أبتعد ويتقدمون، حتى صار بيني وبينه العَشرات، وبيني وبين نفسي ازدادت التساؤلات.

نظرتُ حولي بعد سنوات من ملازمة الداعية الشاب فلم أجدْ من طرقوا الباب معي. عاد أخي لنزواته وترك المصحف وألقى السِواك جانبًا.

وكان لديّ صديقان يأتيان تلك الندوات أحدهما ذهب للتيار السَلفي وأطلق لحيته وصار يُحذرني في كل مرةٍ يلقاني من الداعية الشاب وخطره على الأمة.

ذلك أنه لا يملك سمت الدعاة والعلماء المسلمين، وأنه ليس بمتخصصٍ لأنه خريج كُلية التجارة، غير أنه لم ينتبه إلى أنَّ الدعاة الذين يدعونني إليهم تخرَّجوا من كُليات الألسُن والإعلام والخدمة الاجتماعية!

وتناسى صديقي هذا حاله قبل أن تطرق كلمات الداعية الشاب باب

قلبه، وأنها مَن انتشلته من هوة اللا هوية الدينية التي كان يحيا فيها وجعلته الآن الشاب المُلتحي مقيم الصلاة الآتي فروض الله.

أما الصديق الآخر فقد جاءتْ الندوات معه بالعكس فطرق باب الدنيا بكل قوته وأتى ما لم يَكنْ يأتي من قَبل من فروض المعصية.

وقررتُ طرق الباب الذي كان يجنبنا إياه شيوخنا في الجماعة، باب السَلفية، لم أنوِ الانضمام للتيار السَلفي، فقط أردتُ أن أنهل من عِلمِهم.

كانوا غزيري المحاضرات والندوات بتشعُب صنوفها، ولم يَكنْ هناك هذا التضييق الأمني عليهم مثلما كان على الجماعة! وصِرت أحضر ندوات شبه يومية، في الفقه والعقيدة والسِيَّر والحديث، وصِرت أنتقل من شيخٍ لآخر حتى عجزتُ عن حصرهم.

أذكر أحدهم بشكل خاص، ذلك أنه في ندوة من الندوات طَرح عليه السائل قولًا يستوضح فيه مدى حُرمة دراسة القانون في كُليات الحقوق.

اهتممت بالسؤال حينها لأنني كنتُ طالبًا في كُلية الحقوق، فردَّ الشيخ قائلًا: إننا نعاملها من باب الضرورة.

الشيخ يرى أن هذا المجال لو تُرك لرجال ليسوا ذوي تقوى فهذا يعني أن أخاك المسلِم حينما يريد حقه سيقع فريسةً لمحامٍ لا يملكُ من تقوى الله شيئًا.

فمِن باب أَولى أن نصبر على البلاء ونقبل بدراسة القانون في الجامعات حتى يُمكِّن الله لشريعته، مع الوضع في الاعتبار أنها الطريق

الوحيد الآن للإتيان بالحقوق لمستحقيها.

في تلك الفترة التي طرقتُ فيها أبواب السَلفية لاحظتُ أنَّ كوني غير ملتحٍ يسبب لي مضايقات ونفورًا من قِبل الشباب ممن يحضرون تلك الندوات.

حاولتُ أن أنخرط فيهم غير أنهم كانوا يتجنبوني، يقولون: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم مَن يخالل**»، وكوني لست بصاحب لحية فإن هذا الأمر يطعن في عقيدتي ومدى صِدق توبتي لديهم.

هنا قررتُ أن أُطلق اللِحية ليس عن يقين بها أكثر منها رغبةً في اختراق هذا العالَم، وقد كان، فإطلاق لِحيتي فتح لي آفاقهم وجعلني واحدًا منهم، وتحولتْ النظرة وكأني أحد صحابة رسول الله.

غير أنَّ هذا الأمر لاقى رفضًا على الوجه الآخر من أحد أساتذتي داخل الجماعة، والذي طلب مني صراحةً حلق اللِحية.

قال: الضرورات تُبيح المحظورات وإنَّ إطلاق اللِحية قد يوجه أنظار جهاز أمن الدولة نحوي، وكان كلما قابلني طلب مني حلقِها حتى وصل به الحال إلى الأمر بعنفٍ.

وتعجبتُ من هذا المشهد، فهؤلاء يحصرون وجودي بينهم على إعفاء لحيتي وهؤلاء يرفضون إعفاء تلك اللِحية، والطرفان في الأساس مسلمون من أهل السُنة والجماعة، غير أنَّ هذا يقول إنها فريضة، وذاك يقول ليست بفريضة!

ظللتُ على مدار عامٍ كاملٍ أحيا داخل تلك الدائرة السَلفية بلحيتي المُعفاة وجلبابي الأبيض وسِواكي الذي لا يُفارق يدي.

بيد أني وجدتُ نفسي أحصل على سمتهم ووجدتني أنتقل من دائرة الجماعة إلى دائرة أكثر تشددًا تعد دائرتي السابقة بالنسبة إليها إحدى دوائر العَلمانية الشاملة وليست الجزئية فقط!

فقمتُ بحلق لحيتي وكانت تلك هي القَطيعة، وكأني أدركتُ إحدى مسببات الرِدة، غير أني أطلقتها لأمرٍ في نفس يعقوب وقد أتيته.

***

رآني إمام المسجد وأنا أبكي، اقترب مني وسأل، غير أني لم أجدْ إجابة، سكت هُنيهةً ثم أعاد السؤال: هل أنت عضو في الجماعة؟! تعجبتُ له أنَّا يعلم، فترَدُدي على هذا المسجد حديث، ولم يحدث بيننا حوار سابق.

الحالة الإيمانية التي كانت تحوط جدران هذا المسجد كانت تأسرني، كان قد مرَّ شهر وأنا أُصلي صلواتي خارج القرية، في أحد المساجد على أطرافها.

كنتُ قد بدأت التغَيُب عن جلسات الأُسرة الأسبوعية داخل دائرة الجماعة، وعلى غير العادة لم يهتمْ أحد، وكأنهم كانوا ينتظرون، فمسألة تمَرُدي بالنسبة إليهم كانت مسألة وقت ليس إلَّا.

فراغٌ قاتلٌ تركَتْه في نفسي أعراض انسحابي من الجماعة، منذ الصِغر وأنا بينهم، أصدقائي، إخوتي، شيوخي، من علموني، ذكرياتي الحُلوة، والمُرة، لحظاتي جميعها كانت بينهم، لم يَكُنْ لي عالَم آخر، كان تمرُدي على الطاعة العمياء وعلى قتل تلك الأمور التي أُحبها دون سبب!

بمجرد أن سال دمعي شعرتُ وكأن أمرًا جليًا انزاح عن صدري،

وتلمستُ انشراحه تلبستني، أخذتني لعوالِم أخرى أهدأ حالًا من تلك التي كنتُ أحياها لستِ سنواتٍ مضتْ.

تلقَّفني هذا الشيخ ولكنَّه كان على النقيض مِن تلقُف شيخي الأول، كان أستاذًا في الجامعة، تخصص في علوم اللغة، وكان أحد أتباع الطريقة الصوفية، وكان عاشقًا للقراءة، هو أول من علَّمني كيف أختار كِتابي، وكيف أبحث معتمدًا على نفسي لا على كلام الشيوخ.

كنتُ أقرأ في أحد الكتب وقرأت حديثًا نبويًا شعرتُ بأن عقلي يرفضه، فلما سألته أخذ يدي إلى المكتبة ودرَّبني على كيفية استخراج الأحاديث من كُتبها الأم، عن طريق أحد المعاجم المفهرسة لكُتب الأحاديث.

كنتُ أتجول بين صحيح البخاري ومسْلِم وابن ماجة ومسند ابن حنبل وكُتب التفاسير. وتعجبتُ من كَم تلك الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي تربينا على أنها أسس لا حيد عنها.

هو أول من أصَّل في نفسي ألَّا أضع كلام أيّ كتابٍ محل تصديق إلَّا قبل أن أعود إلى المصدَر بنفسي، حتى آيات القرآن التي يستعين بها الكاتب في كتابه كنتُ أعود للقرآن لأتأكد منها.

كان يُقيم هذا الشيخ مسابقات هو أيضًا، ولكنَّها هي الأخرى مختلفة، طلب منا فيها إنشاء مؤلَّف مصغر عن غزوة أُحد، وكان أول شيء أسطره بقلمي وكنتُ حينها في نهاية دراستي الثانوية.

حصل مؤلَفي على المركز الأول، غير أنَّ شيخي قبل أن يُعلِن الجائزة قال إنني أستحقها ليس لأن العمل يستحق، لكن لأنه أفضل الأسوأ.

كنتُ قد سطرتُ البحث بطريقتي التي تعتمد على النقل من هنا

وهناك دون التيقن من صحة الكلام ودون إرهاق النَفس في البحث عن المصادر.

قال الشيخ إنه يجب أن أعود إلى المَصدر وأن أتأكد من صحته وأن يكون لي حيز من التأليف داخل العمل أضع فيه رأيًا وأن أكون أمينًا في النقل فلا أنقل أمرًا دون أن أنسبه لصاحبه.

كنتُ قبل أن أدخل هذا العالَم أتمرد وفقط، أرفض دون أن يكون لي ردَّ فعل أو أن أنتهج طريقًا عمليًا آخر غير هذا الذي اعترضتُ عليه.

أما بعد أن دخل عالَمي هذا الشيخ أضحيتُ متمردًا باحثًا، لا متمردًا خاملًا، وأُلقيتْ عني تكليفات الجماعة، فلا لقاءات ولا مشاركة في فعاليات ولا مناصرة في مواقفهم السياسية ولا ندوات ومؤتمرات كما السابق غير أني لم أُلقِ عن كاهلي تعاليمهم ودينهم، فأنا لا زلتُ مؤمنًا على طريقتهم!

***

كما أنَّ المسجد كان بداية الرحلة عندما أدار لي شيخي الأول ناظره بعين الاهتمام، كان ذلك المسجد أيضًا نقطة تحَول على طريق تلك الرحلة، وكانت أهم نقطة تحول في حياتي. ضربتُ فيها بعرض الحائط الكثير مما تعلمته، ووجدتني أعود من نقطة البداية مرةً أخرى.

في هذا المسجد كانت توجد حلقة لتحفيظ القرآن، دخلتُ عليها بثقة الحافظ، قال لي المُحَفِظ اقرأ، قلت أقرأ من سورة البقرة فأمَنَّ على كلامي.

أنا أحفظ سورة البقرة عن ظَهر قلب، غير أني لم أتمكنْ من قراءة

حتى الحروف الثلاثة في الآية الأُولى، ذلك أن المُحَفِظ ردَّني في البسملة، ظللتُ لدقائق لا أقدر على قراءة البسملة بطريقةٍ سليمة.

كيف بتلك السنين التي كنتُ فيها أقرأ القرآن في أغلب التجمعات، ولم يَكنْ يَرُدَّني أحدهم؟

أعطاني هذا المسجد وشيخه الطريقة السليمة لتحصيل العِلم، غير أنهما لم يعوضاني عن أمرٍ مهم، هو مفهوم الأُسرة داخل الجماعة.

أنا الآن أعيش منفردًا أشعرُ بهذا الخواء العاطفي الذي كان يملأه مفهوم الأُسرة، هذا المفهوم هو مِن أهم أسباب بقاء الجماعة طوال تلك السنوات.

يكفي أنه لو مرَّ يومٌ دون أن يراك الأصدقاء في المسجد فإنهم يأتونك في المساء للاطمئنان عليك، ولو أنك مرضت وجدت أنَّ هناك أعدادًا ليست بالقليلة تأتي لزيارتك والاطمئنان على صحة أخيهم.

وقد تجد العشرات من الذين لم تعرفهم من قبل وقد جاءوا لزيارتك فقط لأنك أخيهم في الجماعة، وفي أفراحك يقفون بجوارك، وكأنهم إخوتك الحقيقيون.

كانت كل تصرفاتهم هي في ناظرهم عبادة، فلم يَكنْ أحدهم يأتي أمرًا ثم يتململ أو يَمُن عليك بفعله، بل أنت الذي تَمنُ عليه لأنك كنت سببًا في إعطائه الحسنات، غير أنَّ تلك الحسنات لم تَكنْ تأخذ الشرعية إلَّا إذا كانت للجماعة، وطالما أنني تركتهم فلا حسنات من ورائي.

***

الخروج

ذهبتُ لأبي فرحًا، أحملُ في يدي أوراق التحاقي بالجامعة، أغزل ببسمتي هذا العالَم الذي أتمنى أن أحياه، منتظرًا تلك الفرحة التي ينتظرها كل أب، وتحيى لأجلها كل الأُسر.

في الطريق من المدرسة إلى البيت أخذتني خيالاتي لهذا العالَم الذي صنعته بنفسي لنفسي.

الجامعة، السلم الذي يأخذك لما تتمنى، العِلم، المعرِفة، الأكاديمية، إلَّا أنَّ تلك الخيالات والأُمنيات توقفتْ فجأة، وتحولت بسمتي لغضبة كادتْ تقتلني.

– لن تلتحق بالجامعة!

هكذا قالها الأب، وبقبضةٍ للروح أوشكتْ أن تقتلني هكذا تلقيتها.

وأمي تقف مكتوفة اليد يكاد القلب أن ينفطر من ألمها على رضيعها الذي كبر الآن، وها هو يطرق بابًا قد يصعد به من هذا العالَم المقفر الذي تحياه الأُسرة إلى عالَمٍ آخر من المفترض أنه أرحم وطُرُقه للصعود متعددة.

لكنَّ زوجها يرى أنَّ هذا العالَم ليس لمثلنا، فالفقراء كما يُخبرنا خُطباء المساجد يدخلون جَنة الآخرة وفقط، وليس من المفترض أن يَحلموا بجَنةٍ غيرها.

حاولتُ أن أستفسر أكثر فقال الأب إنَّ هذا الأمر ليس لنا، حتى وإن طاوعتك فيما تُريد فمن أين لنا بالمال؟ واسترسل الأب واصفًا هذا

الحال الذي نحياه والذي لا يُوفر لنا سوى قوت اليوم وما تبقى يُعيننا على ما يخبِّئه لنا الغد.

زادتْ دهشتي، وكاد الانفعال المكتوم داخل هذا الصدر ينفجر آخذًا روحي معه.

كم من الأُسر تتمنى هذا الأمر، حتى إذا جاء بذلتْ الغالي والنفيس من أجل أبنائها، وإذا بأبي يُخبرني أنه يجب عليَّ الاكتفاء بما وصلتُ إليه من التعليم، وأن ألتحق بسوق العمل كباقي إخوتي لأُهيئ نفسي لهذا العالَم الذي لا يرحم أمثالنا، غير أني لم أُدركْ تلك الحقيقة التي رآها أبي إلَّا بعد وفاته.

قلتُ لأبي إن كان الأمر متعلقًا بالمال فلن أُطالبك بمالٍ، سأَعين نفسي على دراستي، ومن الغد سأخرج باحثًا عن عمل يُوَفر لي ما أحتاج إليه من مصروفات وأموال تُعينني على دراستي.

رضخ أبي على غير رغبةٍ بعد ضغوط مني ومن أمي، لم يَكنْ الأمر متعلقًا بالمال أكثر من كونها حياة يراها ليست لمثلنا.

غير أنَّ الأمر إن بدا في ظاهِره مؤلمًا إلَّا أنَّ أبي قدَّم لي خدمةً أدركتُها أيضًا بعد وفاته بأعوام.

خروجي لسوق العمل أعطاني هذا العالَم الآخر الذي أخْفَتْه عنا الجماعة داخل القرية، فالقرى تتّسم بالتشدد والتمسك بالأعراف والعادات والتقاليد والموروثات عن غيرها، فما بالكم إن تحكم في القرية إلى جانب هذا التشدد تيار ديني؟!

مكنني هذا العالَم من بدء ترحالي، وكانت رحلة الخروج الأُولى. خروجي

للعمل إلى جانب دراستي في الجامعة أعطياني القرية الأخرى التي سأبدأ منها، وإن لم يَكنْ خروجي بالكُلية إلَّا أنَّ رمزية الخروج والتي تمثلت في الجامعة والعمل أعانتني على هذا الأمر.

التحقت بوظيفة عامل نظافة في مَطعم على النيل، وساعدني أخي في الحصول على تلك الوظيفة باعتبار أنه كان يعمل في نفس المَطعم.

كنتُ حينها في السابعة عشر من عمري، العمل في تلك السن الصغيرة في القرى والعشوائيات ليس بالأمر الغريب، هو أمر تعتاده تلك الأماكن الفقيرة.

وفي أول يوم ذهبتُ فيه لمحل العمل الجديد أدركتُ الفاجعة، هذا المطعم مكوَّن من ثلاثة طوابق. طابق لتقديم الوجبات السريعة، وطابق لتقديم وجبات الأسماك، ويتوسطهم طابق ثالث هو صالة رقص وتقديم المشروبات الكحولية.

من الوهلة الأُولى في حياتي العملية أدركتُ حجم الفارق بين القرية والمدينة، فليس الأمر بحِكرٍ على كونها جماعة دينية وفقط، إنما هي جماعة دينية داخل قرية الفَقر هو السمت الغالب لقاطنيها.

طلَّقتُ سمتي الملتزم وقلتُ أحيا مجرد إنسان، أُريد أن أنزع عني كلمة مولانا، لستُ شيخًا ولا ملاكًا كما تظنون، إنما أنا مجرد إنسان، يأكل ويشرب وينام، يعشق ويكره، ويُخطِئ ويرتكب الفاحشة.

بدأتُ الرحلة في العمل، لا أنسى ذلك الرَجل الذي كان يعمل بالملهَى، يُقدم الخمور ويُعاقرها، تتلمس عيناه الطريق إلى النساء وأجسادهن الممشوقة.

وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أراه يسرق بعض زجاجات الخمر لا ليبيعها، إنما ليشربها دون أن يتكلف ثمنها المرتفع.

كان في منتصف العِقد الخامس من عمره، هادئ الطبع، يُتقن عمله بطريقةٍ متناهية، ويُتقن أيضًا ارتكاب المعصية، فور أن يسمع الآذان تجده قد توجه من فوره إلى المسجد، وكأنه رَجل غير الرَجل.

في إحدى المرات التي كنتُ أعمل فيها على إزالة ما خلَّفته سهرة الأمس بالملهى وجدت زجاجة خمر مخبأة، خمنت أنَّ أحد العمال أراد أن يحظى ببعض اللّذة مجانًا.

حملتُها لبعض الوقت، أنظر إليها كأني أُحادثها، أستأذنها كي تمنحني هذه اللَّذة. نازعتني نفسي لأن أفض غطاءها وأرتشف منها لأدرك سِر تعلق الناس بها.

هل حقًا تأخذك إلى عوالِم أخرى؟ غير أنَّ ضربات القلب زادتْ، ورعشات اليد كادت تُسقطها، وكأن هناك من ينظر لفعلتي تلك ويُنذرني عِقابه إن أتيت تلك الفِعلة.

فما كان مني حينها إلَّا أن أخذتُ تلك الزجاجة وألقيتُ بها في النيل واستحال وجهي بسمة بهذا النصر الذي أتيته، وكأنني أقمتُ حدًا من حدود الله.

رآني صاحبنا وأنا أهِم بإلقاء زجاجة الخمر في النيل فهرول تجاهي مسرعًا محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه لكنَّه لم يتمكنْ من ذلك، فنهرني وصبَّ عليّ جام غضبه قائلًا لي: كيف تُلقي بالنعمة؟!

***

قدَّمتُ أوراقي للجامعة وتم قبولي للدراسة في كُلية الحقوق بجامعة عين شمس.

عَلِم العاملون بالمَطعم أنَّ هذا العامل الجديد هو طالب في كُلية الحقوق، وكان هذا الأمر مثار اندهاش لي ولهم، هم يتعجبون لماذا أعمل؟! وأنا أتعجب لماذا لا أعمل؟!

بدأتْ المعاملة تأخذ منحنى آخر، كان هناك نوع من النِديَّة وليست الفَوقيَّة بيني وبين من هُم أعلى مني شأنًا في المكان، وكانت تلك أول معالِم إدراكي أني مُقْدِم على عالَم آخر، ودنيا أُخرى، وأنني ارتقيتُ أول سُلم في هذا العالَم بالتحاقي بالجامعة.

حينها طلب مني أحدهم أن ألتحق بالعمل معهم في الملهى الليلي، وقرر أن يعينني على ذلك.

كان الفارق في الراتب قد أطار النوم من عقلي، تقريبًا عشرة أضعاف ما أتحصل عليه من عملي الحالي، غير أنه وفي اللحظة الأخيرة توقف الأمر نظرًا لأنهم اعترضوا على سِني الصغيرة، وأنه لا يتسنى لمن هم في مثل سِني الوجود في هذا المكان.

قد أتواجد فيه بعد أن ينتهي العمل به لإعادته لهيئته السابقة وتجهيزه لاستقبال ليالي أخرى، أما أن أُوجَد فيه أثناء العمل فهذا مرفوض.

غير أنَّ ما أهمني في الأمر هو كَوني كسرتُ الحاجز وانتويت العمل في ملهى ليلي أُقدم فيه الخمور!

انتقلتُ من عملٍ لآخر، وفي كل انتقالة كانت تُصاحبني انتقالة

لعوالِم المعصية.

كنتُ أحسبها تدفعني بعيدًا عنهم، وتدفع الناس عن الاعتقاد بتديني، كنتُ أتعمد ارتكاب كل ما يُعدْ في عُرفهم معصية، ليس رغبةً فيها بقدْر ما هو إرادة التَرك بمفهوم المخالفة.

كان الظاهر للعَيان أني أترك جماعةً، إلَّا أني في الحقيقة كنتُ أترك دينًا اسمه دين الجماعة.

وكان العمل الآخر الذي انتقلتُ إليه لا يقل سوءًا عن سابقه، وتذكرتُ تلك العِبارة التي سطرها (باولو كويلهو) على لِسان بطل روايته (الخيميائي) حينما قال فيما معناه إنَّ الإنسان إن أراد تحقيق أسطورته الذاتية فإن كل ما في الكون يتحالف من أجل إعانته على تحقيق ذلك.

التحقت بالعمل في مركزٍ للتجميل بحي الزمالك، ولا أعلم لسوء حظي أم لحُسنه تم اختياري للعمل بالقسم الحريمي.

صِرتُ لا أرى إلَّا النساء، وليس أية نساء، إنهن السافرات الرقيقات الجميلات، أو كما قال الرَّاوي: «**كاسيات عاريات مائلات مميلات!**» وكأني أُحطم ناموسًا حمَلَته جدران عالَمي هو أنني مولاكم فلان.

وبدأتُ أرقَ لهذا العالَم، وأُدرك أنهم أُناس مثلنا، إنهم بشر، ولهم أخلاقهم وقيمهم ومُثُلِهم، وليسوا كما يُصور لنا داخل دوائر الجماعة، من أنَّ هؤلاء البغاة هم سبب النكبة التي يحياها المسلمون.

***

بدأتُ الدِراسة بالجامعة، ومن أول يوم لي داخل المدرج الجامعي، قررتُ ألَّا أُصادق ذكورًا، كنَّ جميعهنَّ فتيات.

كَسرتُ الحاجز النفسي، وصِرت أُطلق ألفاظ الهوى هكذا دون حساب، أعشق هذه، وأُتيَّم بتلك، وإن تركتني الحبيبة ما ألبثُ أن أستبدلُ غيرها بها، حتى أنني قلتُ كلمة الحُب لعشرين فتاة في أول فصل دراسي بكُلية الحقوق.

كانت ممنوعات لسنوات، غير أنها فجأةً أضحتْ مباحات، وأعدادهن بالآلاف، وكُلهن فاتِنات، وبعضهن سافرات، ولهنَّ نفس الرغبة، بعد منع دام عليهن أيضًا لسنواتٍ.

نعم كانت هناك خطوط حمراء فرضتها ليالي المشيَخة سابقًا، غير أني اكتفيت بما أسفل تلك الخطوط.

في ذلك الوقت أردتُ أن أُعالج سوءة ألمتْ بي، غير أنَّ الدواء الذي استحضرته كان أسوأ، وبدلًا من أن أُعالِج القصور فيما مضى شطحتُ بأمري فيما حلَّ، وصِرت أتعامل مع المرأة أسوأ مما كان.

كيف لي أن أعُدها إنسانًا يشاركني الأمر، وأنا لسنواتٍ أنام وأصحو على حديث: **«لأن يُطعَن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له».**

وأحاديث أخرى تتحدث عن غض البصر وأنَّ النساء حبائل الشيطان، وأنَّ العين تزني والقدم تزني واللسان يزني، وأنَّ تلك المرأة ما هي إلَّا وعاءٌ للجنس وفقط.

قد أكون قد أخطأتُ السبيل، غير أني أعذرُ نفسي لأنَّ الرَكب الذي أقلَّني لم يسطرْ عنوانًا على مقدمته سوى سبيل حبائل الشيطان!

***

انكسار

نادي الحاجبُ على رقم القضية، مَرة، اثنتين، تسمرتْ الكلمات في حلْقي، أردتُ أن أقف فلم أَقدرْ، أردتُ أن أرُدَّ النداء فلم أقوَ.

أعاد حاجب المحكمة النداء مرةً أخرى، شددتُ على نفسي وارتديتُ ثوب المحاماة الخاص بي وتوجهتُ إلى القاضي.

نظر لي القاضي قائلًا: طلبات الدفاع؟ غير أنَّ تحَجُر الكلمات في حلقي لم يزلْ بعد، كنتُ وكأني نسيتُ المعاني والمصطلحات وعدتُ طفلًا لا يملك من أمره شيئًا.

حتى تلك اللحظة كنتُ أجيد دور التابع، تفوقي في الأمور الإدارية كان يعود الفضل فيه لكوني لا أتصدرُ الأمر، أنا فقط أُنفذ تعليمات المحامي الذي أتدربُ على المهنة بمكتبه.

نظر لي القاضي نظرة المشفق، أدرك من هيئتي وصِغر سني أني مُتدرِب حديثًا في مهنة المحاماة، فأعاد سؤاله بصوتٍ أكثر عَطفًا قائلًا: طلباتك إيه يا أستاذ؟

تذكرتُ حينها تلك الكلمة التي شاهدتها بالأمس في أحد الأفلام لمحامٍ كان يقف نفس موقفي، قلتُ على الفور وكأني أدركتُ طوق النجاة: **«تطبيق نص القانون على الحالة المطروحة أمامنا».**

كان باب المرافعات قد أُغلق في القضية سابقًا ومن المفتَرض أنها محجوزة للحكم، عندما أرسلني المحامي أخبرني أنَّ الأمر لا يحتاج لعَناء، فقط إثبات الحضور بالتوكيل الصادر لك من المتهم وسماع الحُكم.

أدرتُ ظَهري للمحكمة وتركتُ نفسي لقدميّ تأخذاني حيث شاءتا، وسألتها: لماذا؟!

***

تذكرتُ هذا اليوم في المدرسة الثانوية عندما أسأتُ التصرف في حصة الرياضيات، فما كان من أستاذي إلَّا أن أسرع الخَطو تجاهي ليمسك بتلابيبي جاذبًا إياي بكل ما ملك من قوةٍ دافعًا بي أرضًا وإذْ به يضربني بكلتا يديه دون أي تحسبٍ لأذى.

جاهدتُ نفسي على الوقوف، غير أنه لم يُجاهدْ نفسه ليقف عن ضربي بكلتا يديه على وجهي، وكانت تلك هي المَرة الأُولى التي يصفعني فيها أحدهم.

لم أكنْ أعلم أنَّ الصفعة لها من هذا الأذى النفسي إلَّا في تلك اللحظة. ظللتُ واقفًا أمام الطَلبة حتى انتهى الأستاذ من درسه وكانت أطول دقائق مررتُ بها قبلًا، غير أني لم أقوَ على رفع رأسي.

***

عادتْ بي الذاكرة إلى الوراء كثيرًا، تذكرتُ التجمعات التي كنتُ أنشدُ فيها الأناشيد بصوتٍ مُنغمٍ، وكيف أنَّ الحضور كانوا يُبدون تجاوبًا وإعجابًا بهذا الطِفل ذو الصوت الشجي.

كنتُ أشعرُ في نفسي بهذا الشيء المُحرم، تلك الفرحة التي تقود إلى النار، العَجب بالنفس، والعَجب كِبر، والكِبر شِرك، وكل الذنوب تُغتَفر إلَّا الشِرك بالله. كانت معركة أخرى دارتْ رُحاها في ليالي التَرك.

كنا دائمًا نبدأ حديثنا داخل دوائر الجماعة بحديثٍ شريف يُعلي من

قيمة النيَّة ووجوب أن تكون لله، وكانوا دائمي التأكيد على هذا الأمر.

وأحاديث طوال عن أنَّ النيَّة لو شابها عوارٌ تحوَل الأمر لشِركٍ أصغر وربما تطور لشِركٍ أكبر، وهنا فأنت مُعَرَّض لجهنم وبئس المصير.

غير أني لم أَكنْ أجد ما يمنع من التربية على كتف أحدهم إن هو أحسن. نحن في حاجة لمثل هذه الأمور كي نملك القدرة على الاستمرار، لكن مَن يملك القدرة على الهروب من العَجب بالنفس الذي قد يجعل من نفس أحدنا صنمًا يُعبد من دون الله.

كنتُ أسألُ نفسي دائمًا كيف أُحب إلهًا وأنا دائمًا ذليل له منكسر الرأس أمامه؟ وهل الحُب ذل أم نِدية بين المتحابين؟ وهناك السؤال الأهم، مَن ذا الذي حدد معايير الذُل والانكسار؟ وهل تحوَل الانكسار لله إلى انسحاق للشيخ ممثل الإله؟

كنتُ كلما أتيتُ أمرًا أعجبني نهرتُ نفسي عن غيّها، إنَّ الأمر كله لله، ولا يحقُ لي أن أعجب بأمرٍ لا يد لي فيه، فالإرادة لله، وما أنا إلَّا أداة في سبيل تحقيقها.

زاد الأمر في نفسي ومعه زاد جَلد الذات، وزادتْ رغبتي في كسر تلك النفس الأمَّارة بالسوء والتي لا ترى سوى الدنيا.

***

فور أن خرجتُ من المحكمة أخذتُ أُفكرُ في حالي، من الطبيعي أنني لم ألتحقْ بكُلية الحقوق وأقضي تلك السنوات الدراسية كي أكتشف في النهاية أنني لا أملكُ القدرة على أن أكون نفسي، وأشعُر أنني أقل من الآخر لا لشيء إلَّا أنني كنتُ دائمًا تابعًا لنظرة أحدهم ورؤيته.

المحاماة تحتاج لنظرتي أنا والخطأ البسيط مني قد يُدمر حياة أحدهم، وبدلًا من أن أُهاجَم قررتُ ترك المعركة، وتركتُ مهنة المحاماة.

بعد تركي المحاماة مررتُ بحالة اكتئاب لازمتني عامًا كاملًا، كنتُ تقريبًا لا أخرجُ من البيت أو القرية إلَّا نادرًا جِدًا، أجلسُ في غرفتي بالساعات أقرأُ، ألتهمُ كِتابًا بعد كِتاب، إلَّا أنها كانت فقط روايات.

حتى اللحظة كنتُ أنظرُ من عين الشيخ التي ترى أنه ليس كل عِلمٍ ينفع، وكانت هناك أسماء وعلوم بعينها من المُحَرم علينا الاقتراب منها، إنها مِثل النداهة التي إن سلبتْ عَقل أحدهم أحالته إلى دائرة الكُفر. حتى في القراءة كنتُ أنسحق أيضًا أمام الكُتب التي يراها الشيخ وفقط.

***

الزمالك

في المسجد على أطراف قريتي، ذلك الذي تعرفتُ فيه سابقًا على الشيخ الصوفي، تعرفتُ أيضًا إلى الدكتور آدم وزوجته مدام إيناس.

صادف أنهما كانا يبحثان عن شابٍ ليُدير محلًا خاص بهما لبيع الأدوات المكتبية بحي الزمالك يُجاور منطقة مدارس.

في واحدة من تلك الأيام التي كانت تجمعُنا فيها صلاة الجُمعة بالمسجد أوقفتني مدام إيناس بعد الصلاة، قالتْ: «**إحنا محتاجين شاب أمين يدير المكان، نملك دكانه لبيع الأدوات المكتبية في الزمالك**». سألتها مستفسرًا عن طبيعة العمل بشكلٍ أكثر تفصيلًا، رغبةً في معرفة الراتب المناسب، فردَّ دكتور آدم: «**مش هنختلف، المهم عندنا الأمانة**».

سألتْ مدام إيناس: «**جاهز تشتغل من إمتى؟**». أجبتها: «**مِن بكرة لو عايزين**».

بعد أيامٍ معدودة أدركتُ سِرَ اهتمام مدام إيناس ودكتور آدم بمسألة الأمانة تلك. معظم من عملوا بالمكان استباحوا إيراد المكتبة.

حكتْ مدام إيناس أنَّ ممن عملوا معها كانت فتاة منتقبة، إلَّا أنَّ نقابها لم يمنعها من سِرقة المكان.

مدام إيناس كانت تشك في كل من حولها، أظنُ أنها تشك حتى في نفسها، كنتُ أتخيلها في أوقاتٍ كثيرة قد أوشكتْ أن تُفتش نفسها هي أيضًا.

لم تسببْ لي حالة الشك تلك مشكلة في البداية، خاصةً أنني كنتُ مُغرمًا بذلك العالَم الجديد، وأتحمل لأجل البقاء فيه الكثير، إلَّا أنَّ المسألة تعقدت بعد ذلك.

كان لزامًا عليّ أن أفتح المَحل في السابعة صباحًا قبل حضور الطلاب، المكان الذي أعمل فيه يتوسط منطقة تحوي ثلاث مدارس. التأخير في مواعيد العمل يُسبب خسارةً حقيقية، فمعظم مشتريات الطلاب كانت في الصباح، بعد انتهاء اليوم الدراسي لم يَكنْ يتبقى معهم ما يبتاعون به شيئًا.

مدام إيناس كان من الممكن أن تتهاون في أي خطأ، إلَّا التأخير في مواعيد العمل. كنتُ أخرج من البيت في الخامسة والنصف صباحًا. يحتاج الطريق لساعة ونصف كي أصل إلى حي الزمالك.

في البداية كنتُ أظن أنني لن أستمر في ذلك العمل، مدام إيناس لن تتحمل مسألة أنني حديث عَهدٍ بالعمل كبائع، إلَّا أنه وبعد بضعة اختبارات ساذجة لأمانتي ونجاحي فيها زادتْ تمسكًا بعملي معها.

كانت مثلًا تترك الإيراد اليومي في مكان مكشوف وتنتظر ردَّ فِعلِي، كنتُ أتصل بها في المنزل لأُخبرها أنها نسيتْ الأموال، وتكررتْ مسألة ترك الأموال تلك لكن في أماكن مختلفة.

في النهاية وقفتُ أمامها قائلًا: «**هي مسألة نسيان الفلوس مش هتنتهي**». أدركتْ مدام إيناس المَغزى من كلامي وأقلعتْ عن ترك الإيراد أو بعض الأموال في مكانٍ مكشوف.

لكنَّها لم تُقلعْ عن الشَك في أنني سأتحول إلى لصٍ يومًا ما. هي تظن على عكس الجميع أنَّ كل من حولها مُدان حتى تَثبت براءته، وإن ثبُتتْ

براءته فهي تنتظرْ متى يقع فريسة للظروف وضيق الحال حتى يتحول إلى لص؟

لذلك بدأتْ في إتباع طُرق أخرى معي، كأن تُرسل بعض أصدقائها ليمثلوا دور الزبائن، كنا نبيع الهدايا وبعض المشغولات اليدوية بجوار الأدوات المكتبية، وتلك لم يَكنْ لها سِعر محدد، كانت تعتمد على التفاوض وقدرة البائع في أن يحصل على أعلى سِعر.

كان الزبائن الذين ترسلهم مدام إيناس يتساهلون معي في الفِصال ويعطوني أعلى سِعر، تظن أنني سأضع الفارق في حافظة نقودي وأُعطيها الثمن المستَحق، إلَّا أنني كنتُ أُخيب ظنها دائمًا.

كانت على يقين أنَّ الجميع يُخططون لسِرقتها، لكنَّهم يتحينون الفرصة المناسبة. بعد فترة فقدتُ الأمَل في أن تثق مدام إيناس في أمانتي وبدأتُ أتأقلم مع الوضع.

تعرفتُ في الزمالك أيضًا على (فريد)، كان يعمل في محلٍ مجاورٍ لنا لبيع الهواتف الخلوية، كان ثقيل الظِل، دائمًا يُريد أن يفرض صداقته عليّ، مسألة المجَاورة في المحل جعلته يعتقد أنَّ له الحق في أن نُصبح أصدقاء.

ربما كنتُ أسعى للابتعاد عنه لأنه كان أيسر مني حالًا، لم يَكنْ مجرد عامل في المحل، هو شريكًا فيه أيضًا، كان يتعمد أن يُظهر ذلك اليُسر المالي أمامي دائمًا، ربما ليُعوِض إحساسه بالنقص لأنني أفوقه تعليمًا، أو ربما لأنه رخْم هكذا بطبعه. وأظن أنَّ الثانية هي الأقرب.

أوقفني يومًا، ثم قال:

– هتفطر معايا النهاردة، ولا زي كل يوم؟

– زي كل يوم.

– إنت ما بتكُلش يابني؟ شكلك بتكَنِزهم على قلبك، فُكها على نفسك هتموت من الجوع.

– و انت مالك يا أخي، إنت هتشاركني في اللُقمة كمان.

رأيتُ (عَوض صبي القهوجي) قادم فناديته.

– عيوني.

– وحياتك يا عَوض هاتلي سندوتش فول وواحد طعمية.

رد فريد:

– إنت يابني نِظام خالِف تُعرَف، ما أنا قلتلك هتفطر معايا قلت لأ.

– يا سيدي بحب آكل لوحدي.

كنتُ أشعر بالحَرج من مسألة مجاراة فريد في حياته.

إفطار فريد الصباحي يُكلفه ما يقرب من العشرة جنيهات يوميًا، أي ما يُعادل نصف راتبي اليومي، كنتُ أُفضل تجنبه، ذلك أنه بالإضافة لرَخامته فهو أغنى مني.

كنتُ أمقتُ أن أُصاحب الأغنياء، حينها تكون مَظاهر فقرُك واضحة في كل تفصيلة من تفاصيل حياتك.

فضلتُ الاقتراب من (عَوض القهوجي). أيضًا (سيد المكوجي)، كانت حياتهم أبسط، فقراء مِثلي. فارق التعليم كان يُعطيني ميزة. رغم اقتراب أعمارنا إلَّا أنهم كانوا يسبقون اسمي دائمًا بلقب أُستاذ.

تقربتُ أيضًا من عَم (نبوي البواب)، كان يَحرس العِمارة في مواجهة المحل، كانوا إن أرادوا الفكاك من نير العمل للاستراحة قليلًا حضَروا لمجالستي، فلم يَكنْ هناك حركة للبيع تُذكر طالما أنَّ الطَلبة في المدرسة، أو بعد انتهاء اليوم الدراسي.

العمل في المحل كان ساعتين أو ثلاثة يوميًا، بقيَّة اليوم كنتُ أقضيه في الجلوس، القراءة، وأحيانًا أكثر في الإنصات لحكاوي عَوض وسيد وعم نبوي.

في يوم جاءني عَوض وقد تغير وجه، قال:

– شُفت اللي حصلي.

– خير.

– كان معايا مُزة من نواحي بولاق أبو العلا، خدتها معايا الشَقة بتاعتي وقضينا ليلة جحيم، وحياتك كانت هتموت مني.

– فين المشكلة؟ ما انت كنت مقضيها أهه.

– صبرك بالله، جايلك في الكلام.

– خلاص، قول.

– صحيت الصبح والمُزة كانت نايمة ومش حاطة منطق، استحرمت أصحيها، قُلت أسيبها تستعيد أشلائها بعد معركة

إمبارح. خرجت من البيت وقفلت الباب والمُزة مش معاها مفتاح تخرج.

أنهى عوض حديثه وأرسل ضحكةً لم أتبينها من الشَخرَة التي صاحبتها. إلَّا أنني لم أُبدِ أدنى اهتمام بحديث عَوض، كنتُ أظنه يكذب.

أنا في العشرين من عمري ولم أمس يد فتاة من قَبل، فكيف له أن يُقيم علاقة مع إحداهن بتلك السهولة.

لم تمرْ لحظات على انصراف عَوض حتى ظَهر سيد المكوجي، كان أنيقًا جدًا، يهتم بمظهره لأقصى حد، شَعره الذي كان يتناوله بعناية، الزيوت التي تلمع على خُصلاته، القميص المكوي دائمًا، حديثه المُنمق على خِلاف عَوض الذي يتكلم بأريحية حتى في أدق تفاصيل علاقاته الجنسية.

كان سيد قد أخبرني أنه لَحِق بتلك المهنة منذ ثماني سنوات، كان صبيًا في الثانية عشر من عمرِه، بالطبع اكتفى بالتعليم الابتدائي، بالكاد يقرأ ويكتب، لكنَّه حاول أن يستعيض بمسألة نقص التعليم تلك عن طريق الاهتمام بمظهره.

كان كثيرًا ما يخدع الفتيات فيظنونه ابنًا لأحد قاطني تلك العمارات التي تُحيط بهم، أو على أقل تقدير يعمل في إحدى الشركات التي تملأ المكان.

حضر إلى المكتبة وبدأ في سرد حكاياته هو الآخر:

– إمبارح كنت هقضي اليوم في التخشيبة.

– قتلت قتيل ولا إيه يا أبو السِيد؟

– دا أنا اتقتلت وحياتك.

– إحكي انت كمان ياعم، ما أنا فاتحها سبيل ليك انت وعَوض.

– كان معايا حِتة وكنا عايشين حياتنا في جنينة الأندلس، لكن موظَف الأمن في الجنينة حَب يرخم. قال إيه عايز يعملي محضر فِعل فاضح في الطريق العام!

– وعملت إيه؟

– ورقة بخمسة وحياتك كرمشتها وحطِتها في إيده والليلة اتلمت. بس البت كانت حكاية.

كنتُ أشعر أن سكان الزمالك يعيشون في عالَم غير عالَمنا، دائمًا يضحكون، يحيون الحياة بكل دقائقها، لا أحد يُحدثك عن صلاةٍ أو إيمانٍ، ولن تجد هناك إخوان ولا سَلفيين.

نساء ذلك الحي من أجمل ما رأيت، كنتُ أظن أنَّ الله عندما فرغ من خلقه تفرغ لحي الزمالك بالذات، أراد أن يجعله قطعة من الجنة.

ما كنتُ أظنه حرامًا وآتيه على مضضٍ ثم أهرع إلى المسجد لأتطهر منه كان يأتيه سكان ذلك الحي وهم يضحكون، لا شعور بالذنب، لا تخَّفِي من الآخر، لا عوالِم سِرية.

لا أحتاج لوقتٍ كي أتأقلم مع هذا العالَم، بدأتُ أتعامل مع ذلك الحي بمعطياته، وفتحتُ حياتي للحُب دون قيود.

***

فرغتُ من صلاة المغرب في المسجد المجاور للمكتبة، العمل في تلك

الساعة من الليل يكاد يكون شِبه مُنعدم، أبدأ في تهيئة المحل ليوم الغد، أُرتب الأرفف، أجرد البضاعة، أتصلُ بتجار الجملة للتزود بالبضائع.

كنتُ منهمكًا في ترتيب رفٍ سفليّ وأنا أجلسُ القُرفصاء منشغلًا بإزالة بعض الأتربة التي اعتلتْ المكان، فجأة جاءني صوتها الذي لم أتبيَنه في البداية من شِدة رقته.

– مساء الخير.

التفتُ إليها رافعًا رأسي لأعلى متوقفًا فجأةً عن أي تعبير يدل على الحركة متسمرًا في مكاني بعد أن نظرتُ إلى عينيها وشَعرها المُنسَدل على كتفيها كأنه نسمات للهواء تتطاير لتُضفي رونقًا آخر على العالَم.

– محتاجة كُراسة وقلم حِبر، ممكن.

جاهدتُ نفسي للوقوف وبدأتُ أبحث عن الكلمات في قاموس مفرداتي الحياتية فلم أجدْ.

نظرتُ إليها وأرسلتُ ابتسامة من ينتظر الخَلاص من زمنٍ، والآن قد لاقاه. بشكلٍ لا إرادي قررتُ أن أَتعرَف إليها دون مقدمات، كانت نظراتها غير تلك المعتادة للزبائن، تملك نظرةً تلهث برغبةٍ تُشبه تلك التي يحكيها عَوض وسيد عن حبيباتهم.

– اسمك؟

أدركتُ أنه قد تَلبَّسني شيطان في تلك اللَّحظة وأنه مَن يُدير دَفة حياتي الآن.

– سالي.

لم أتوقعْ أن يأتيني الرَد هكذا سريعًا، لكنني أيضًا لم أكتفِ بذلك وبدأتُ في اقتحام حصونها واحد تلو الآخر.

كانت في البداية هادئة، تتكلم بتؤدة، تكاد تحصي كلماتها في الحديث الواحد. أعطيتُها ما أرادتْ وتركتُها تذهب، لكن على أمل أن تعود.

***

ظللتُ طيلة الليل أُفكر في ذلك الحديث الذي لم يَطلْ مع سالي. وأبديتُ دهشتي من جُرأتي في الحوار، ربما حياتي في ذلك الحي الجديد قد اقتلعتني من جذور القرية.

لم أُرهق نفسي كثيرًا في البحث عن الأسباب، بل دفعتها للنوم سريعًا كي يأتي صباح جديد يُمكنني من رؤيتها مرةً أخرى.

انتهيت من العمل الصباحي بالمكتبة، وانتظم الطَلبة في فصولهم بالمدرسة، وخَفَّت حركة البيع، وتركتني مدام إيناس، وذهبتْ على أن تعود في الظَهيرة؛ لتساعدني في عملية البيع مع خروج الطَلبة من المدرسة.

لم أنشغلْ بترتيب المكان كالعادة، بل انتظرت ظهور سالي. كنتُ على يقين أنها ستأتي.

حضرتْ نهارًا في تلك المَرة، كانت عائدة لتوِها من المَدرسة، إلَّا أنها حضرتْ بوجهٍ غير ذلك الذي رأيته بالأمس.

دخلتْ المكتبة ووضعتْ يدها أسفل ذَقنها بعد أن أسلمتها إلى المكتب أمامي وحركتْ عجيزتها بطريقةٍ شيقة وبعد أن انتهتْ من ترتيب وقفتها الماجِنة قالتْ:

– صباح الخير.

لو بقيت العمر كله أحاول فهم سالي لفشلت، فرَجُل الأمس كان يخاف أن تمس يده يد أي فتاة حتى قريباته المحرمات عليه؛ خشيةً أن يُطعن بمخيط من حديد في رأسِه، بل كان يخشى حتى مجرد اقتناص ابتسامة في خلسةٍ من الزمن، وكان يُقاوِم شعورًا هو أصيل في تكوينه.

يتعجب دومًا لماذا يُحرِم الله إحساسًا في نفس الوقت الذي جعله غريزةً فينا لا دخل لنا فيها؟

إلَّا أنَّ سيد صَبي المكوجي هو من أنقذني سريعًا ودلَني على المُراد.

– زي ما بقلك كده، البت دي شمال.

– إنت أكيد بتهزر، دي ملاك. يمكن قصدك حد تاني.

– ياعم هي، دي كل يومين تسقط على واحد، تعيش معاه اللحظة وبعدين تقْلِبه.

– سالي!

***

أصبحتُ أنتظر سالي كل يوم، لم أهتمْ بكلمات سَيد، حتى لو كانت كذلك، لا يهم، فأنا أُحبها، نعم، أحببتها.

بعد كلمات سَيد بأيامٍ جاءتني سالي إلى المكتبة، كنتُ كلما رأيتها تحَوَّل بي المَقام إلى إنسانٍ آخر، انتظرتُ طويلًا شعور الحُب ذلك، ولم أَكنْ أتخيل أنني سوف أُحب فتاة مثل سالي في نهاية المَطاف.

تناقُض غريب أن يُحِب شيخ سابق مشروع فتاة ليل في المستقبل، لكن ذلك الشيخ كان يسعى للتحلل من أدران تلك المشيخة، حتى الآن هو يبغض كل ما يمت بِصِلة لعالَمه السابق، ويظنُ أنَّ الخَلاص هو الانغماس في العالَم الحالي.

جاءتْ في موعِدها المُعتاد، أصبحتْ دائمة الحضور إلى المكتبة، نتبادل أطراف الحديث لفترات تَطُول، وفي يومٍ من تلك الأيام استجمعتُ قُواي وقررتُ أن أخبرها، اقتربتُ منها قائلًا:

– بحبك.

– و أنا كمان.

كانت تلك الإجابة إذنًا بالمرور، اقتربتُ من سالي وأسندتُها إلى حائط المكتبة بعد أن تأكدتُ من خِلو الشارع من المَارة، وحصرتُ عالَمها في عالَمي بعد أن طوَّقتُها بذراعي واضعًا إياهم على عجيزتها، متحسسًا ذلك العالَم، ومقتربًا في هدوء المُتَرقِب لذلك الإحساس الذي طال انتظاره.

أسلمتُ نفسي لشفتيها وأخذتُ أدور في تلك الماسَة التي انتصفتُ وجهها، وتعجبتُ من نفسي أنني أُقَبِل هكذا وكأنني أفعلُ ذلك منذُ سنوات، جذبتُها إلى جسدي أكثر وانتفضتْ مع حركتي كل أركاني.

أودعت سالي في ذلك اليوم كل تساؤلاتي عن ذلك العالَم بأحاسيسه التي كنتُ أشتاقُ إليها، كنتُ كَمَن أدرك السبيل للخلاص، كانت قُبلَتُها هي التُفاحة التي أذنتْ لي بالخروج الفِعلي من الجَنة، لأُصبح من سُكان أرض الحرام.

***

بعد أسابيع عشتها مع سالي تركتها. لم أصدقْ نفسي حين ابتعدتُ عنها، ولم أجدْ تفسيرًا لتلك المشاعر التي أبحرتْ بي طوال الفترة الماضية.

سالي لم تقتلْ نفسها من أجلي كما نشاهد في السينما، فقط اختارتْ بعد أيامٍ قليلةٍ من فراقِنا رفيق عشقٍ جديد، لم أندهشْ حين أدركتُ أنه سَيد صَبي المكوَجي.

إلَّا أنَّ سَيد تمكَّن من اقتناص عوالِم أُخرى من سالي عجزتُ أنا عنها، كان مَلكًا في دروب النساء، أما أنا فكنتُ لازلت أحبو.

بعد شهورٍ قليلةٍ أصبحتُ أكثر تمرسًا، وصِرتُ أُبدل فيهن كمَن يُبدل ملابسه، أَنتهِي مِن الحديث إلى إحداهن لأبدأ مع أُخريات.

خرجتُ من أسوار الجماعة لأجد نفسي داخل أسوار أسوأ، هل تلك هي الحُرية التي بحثتُ عنها؟ الآن أعيش حياتي كما أُحِب؟ كنتُ أظنُ أنني عندما أَكفر بهم سأصِير نفسي، إلَّا أنني خرجتُ من دائرةٍ لدائرة.

كنتُ أظن أنَّ رحلة الخروج قد انتهتْ بِكُفري بهم، إلَّا أنني وجدتُ نفسي أَمُرُ برحلةٍ أُخرى، تملؤها عبثية تلك المسرحية التي أحياها.

***

الوافِد

لم يكنْ يومًا عضوًا في جماعةٍ دينية، قلتُ في نفسي إذًا سيكون أكثر نقاءً ولن أرى فيه ذلك التَشوه الذي يؤرِق عليّ حياتي، إلَّا أنه خيَّب ظني.

اسمه (عَلي). كان أحد الوافدين إلى القرية مِثلي، فهو ليس من أبنائها، لكنه نشأ وتربى فيها، لم يُكملْ تعليمه هو الآخر، البحث عن العمل كالعادة كان نهاية المَطاف.

كان في الرابعة والعشرين من عمره حينها، استوقفني في الطريق في ذلك اليوم من العام 2009م وقال: «**عايز أحكيلك حاجة مهمة**» أردتُ أن أتملص منه، إلَّا أن إصراره على الحَكي أجبرني على الموافقة.

نظر في تردٍ ورَسَمَ على وجهه ابتسامة لم أنساها، ثم قال: «**أنا صَباحيّتي النهاردة**»، تعجبتُ من قوله، هو لم يتزوجْ بعدْ، وبالتالي كيف يتحدث عن زواجٍ وجنسٍ وأنا لم أحضرْ فرحًا له.

قلت: «**مش فاهم**».

لكنَّه بدأ يسترسل في الحديث مستحضرًا تجليات المشهد متناسيًا أنني أجلس بجواره وقال: «**كنت في طريقي لمقابلة صديق في منطقة المَرج، أقلَّني ميكروباص و انطلق بنا على الطريق الدائري**».

كانت تجلس بجواري فتاة، لم تَكنْ جميلة، بل قل إنها قبيحة، لكنَّها كانت تملك جسدًا مرسومًا، كان كل شيء فيه بارزًا بوضوح، مؤخرتها الممتلئة التي اصطدمتْ بي وهي تجلس بجواري حركتْ حيوانًا بداخلي من مكمَنه.

تعمدتُ ألَّا أُفسح المجال، التصقتُ بها، لم تتأففْ من فِعلتي ولم تهتمْ، أردتُ أن أفتح سبيلًا للحِوار معها، سألتها عن وِجهة السيارة مدعيًا التأكد من الطريق.

نظرتْ باستغراب من هذا الذي لا يعلم وجهته، علتْ وجهها ابتسامةٌ ماجنة وقالتْ: «**العربية دي رايحة المَرج**».

زادتْ دقات قلبي، ظهرتْ بعض حَبات العَرق على وجهي رغم أننا في شهر يناير، شعرتُ بالإرهاق فأسندتُ رأسي على الكرسي المقابل، في الوقت الذي ازداد التصاقي بجسدها.

لم أَكنْ قد اقتربتُ زيادةً منها، بعد دقائق سقطتْ يدها على قدمي، دارتْ الوَساوس بعقلي، سيجارة الحشيش اللعينة كانت قد أحالتني إلى شخصٍ آخر، لم ينطقْ أحدنا بكلمةٍ واحدة تُتَرجِم ما يحدث، تحدثتْ عيناانا واكتفينا بما استقرتْ إليه من نتائج.

طلبتْ من السائق أن يقف في المحطة القادمة، هبطتْ من السيارة وأنا معها، كانت كمَن تحمِل وليدها الصغير الذي لا يرفض لها طلبًا، أمسكتْ بيدي وسارتْ بي، كأنها تخشى أن أهرب منها.

هل لدمامتها لا تجد مَن يشاركها، ربما لا تعلم أنني كنتُ سأُشاركها رغباتها حتى لو كانت أقبح من ذلك، فتلك مَرَّتي الأُولى، وربما كانت الأخيرة.

قالتْ: «**عندك مكان؟**».

كنتُ في البداية أتعجب من جُرأتها، الآن عرفتُ لما هي كذلك، لقد سقطتُ في براثن عاهرة، يبدو أن شبقها ألهبها في الوقت الذي صادف

فيه وجودي.

قُبحها لا يُعطيها المجال لأن تطلب مالًا، كانت تبحث عن الجِنس وفقط، أجَبتُ سريعًا وقلتُ لها لا أملك مكانًا، قالتْ: «**لا يهم**»، طلبتْ مني أن أتَّبِعها.

كان المكان الذي أوقفتْ السيّارة عنده أشبه بالأرض الخاوية على عُروشِها، يبدو أنها متدربة على ذلك، هل تصطاد زبائنها مِن عربات نقل الركاب؟

مِن المؤكد أنَّ ذلك تفسير منطقي؛ مَن سيذهب طالبًا ممارسة الجِنس معها؟ عليها هي أن تبحث عن فريستها، ويُفضل أن يكون مثلي غير مُتمَرِسٍ على تلك المسائل، حتى لا يهتم بمسألة قُبحها.

تبِعتُها وأنا لا أُفكر في شيء سوى رغبتي في جسدها، انطلقتْ بي في أرضٍ زراعية خَلْفَ سلسلةٍ من المباني المُقامة حديثًا، كانت أرضًا غير مأهولة، بَعد مُدة من السَير توقفتْ في مكانٍ معينٍ كأنه مخبأها.

يبدو أنَّ ذلك هو مكانها الذي تصطَحِب فيه من ليس لهم مخبأ، تحدثتْ للمَرة الثانية في تلك الليلة التي ظننتها حلمًا، تعجبتُ من طلباتها.

طلبتْ مني أن أُعاملها كأُنثى جميلة، أن أَتلذذ بقُبُلاتها، وأن أُمَلِسَ بأصابعي على جسدها، قالتْ: «**أُريد كل شيء قَبل العِلاقة أن يَطول**»، تعجبتُ من طلباتها، وتعجبتُ أكثر من رَدة فِعلي وكأني مُتمرس على تلك المسائل.

التصقتُ بها وأسقطتُ شِفَتي على عُنقِها وأخذتُ أرسم خطوطًا بشِفَتي، نزعتُ عنها تلك العباءة السمراء والتي لم أنتبه سوى الآن لمدى

اتساخها، ثم فكَّكتُ حَمالة صَدرها التي كانت أشبه بِخرقةٍ جمَّعتْ أجزائها من بقايا أقمشةٍ ممزقةٍ لتحفظ بها ثديها.

أعطيتها كل ما أرادتْ مِن إشعارها بأُنوثتها الكاملة.

دخلنا سويًا في لحظة صمت، قَبَّلتني بِرقةٍ وابتسمتْ، قامتْ وارتدتْ ملابسها، طلبتْ مني أن أتبعها وإلَّا لن أجد طريق عودتي، أعادتني لنُقطة هبوطِنا من السيّارة، ثم ذهبتْ.

لم أسألها ما اسمها، نسيتُ أن أحصل منها على موعدٍ آخر، ذهبتْ دون أن تهتم بذلك الواقِف أمامها، تَبِعتُها حتى اختفى ظِلها، شعرتُ بقدمي لا تحملني، جلستُ على الأرض، وانتظرتُ، كنتُ أتمنى أن تعود لتصحبني حيث تذهب.

أنهى عَلي حديثه، نظر إليّ كمَن أتى نصرًا مؤزرًا، كانت تلك مَرَّته الأُولى، لكنَّها لم تكنْ الأخيرة.

بعد أن هتك علي الحجب أصبح لا يفعل شيئًا في حياته سوى ممارسة الجِنس مع نوعية خاصة من النساء، المطلقات، الأرامل، القبيحات، وفي أحيانٍ أخرى الزوجة التي لا يُعطيها زوجها إحساس أنوثتها.

كان يرفض بشدة أن يُقيم علاقة جنسية مع مَن لم يسبقْ لهنَّ الزواج، كان ردَّه صارمًا في تلك المسألة بالذات: «**حرام ياشيخ، أشيل ذنب واحدة لسه بنْت بنوت**».

***

سكنَ عليّ مع أُسرته في نفس الحَي الذي أعيش فيه في منتصف التسعينيات مِن القَرن الماضي.

إذا أردتُ أن أعطيه لقبًا فلن يكون سِوى المُبتَسِم، لا تُفارقه الضحكات، ولا ينتبه لمسيرة الدُنيا، ولا أظنه يكترث إن كان هناك جَنة أو نار، لكنَّه رغم ذلك يُحيط حياته ببعض الحدود، يقول أنها حرام.

عنَّفني عليّ حين طلبتُ منه أن يُحضر لي زجاجة خمرٍ، لم أكنْ أعرف حينئذٍ كيف السبيل لإحضارها، قلتُ أطلب العَون منه، إلَّا أنه رفض بشدة، وأخذ يُحذرني من حُرمتها والأضرار التي تتركها في الجسد.

أخبرني في مَرةٍ أُخرى عن تلك الفتاة التي عرِفها لفترةٍ عن طريق الهاتف، حادثته عن طريق الخَطأ لكنَّه لم يُفوتْ الفُرصة، كعادته أوقع بها سريعًا وبسط عليها شِبَاكه، لكنَّه تركها حين أرادتْ أن تهبه جسدها.

رفض أن يُقيم علاقة جنسية معها، وكان سبب الرفض أنها بِكر لم يسبقْ لها أن مارستْ الجِنس قبل ذلك. قال: «**حَرام**».

في العام 2010م بدأ عليّ يواظِب على الذهاب سنويًا لموسم الحَج عن طريق شركات تُورد عمال لخدمة الحَجيج.

لم تَكنْ المسألة تُكلفه شيئًا، ولم يَكنْ العائِد منها أيضًا مُجزيًا للحد الذي يدفعه لذلك، لكنَّه كان يُسافر لأداء تلك الفريضة، ليغتَسل من ذنوبه.

عن طريق تلك الشركات حَجَّ عَليّ ثلاث مرات حتى الآن، وفي كل مَرة يعود يظل لبضعة أيام على تَقواه ثم يعود ليُمارس حياته من جديد، وبعد كل قصة يُصر أن يحكي.

منذ عامين جاءني كعادته وقال: «**صباحيّتي النهارده**». تأففتُ وتمنيتُ ألَّا يبدأ في السَرد، تلك الحكايات تُؤرقني، ليس لأنني أرفض

انغماسه فيها، لكن لأنني دائمًا ما تمنيتُ أن أكون مكانه، فقط لا أملك جُرأته.

بدأ يسترسل كعادته قائلًا: «**قابلتها منذ سنوات في سُوق القرية، كانت في الثامنة عشر من عُمرِها، نشأتْ بيننا عِلاقة حُب، إلَّا أنها ما لبثتْ أن تزوجتْ**».

منذ أيام كنتُ أسير في سُوق القرية فاصطدمتُ بها مَرةً أُخرى، تسمرتْ مكانها، نظرتْ بشبق، تعجبتُ منها، أليستْ متزوجة، لكن لا يهم، تحدثتْ معي بِضع كلماتٍ مُستغِلة زِحام السُوق وأنَّ أحدهم لن ينتبه وطلبتْ مني الحضور إلى شقتها في نهاية الشارع الذي أقفُ فيه.

لَبَيّتُ ندائها، كانت هي الأخرى قبيحة، بيد أن زوجها لم يَكنْ يُشعرها بتلك الأُنوثة.

دخلتُ بيتها وأغلقنا الباب، طلبتْ مني أن أحضر كل يوم، لا أبناء لها، وزوجها كان يقضي نهاره بأكمله في العمل».

بعد يومين من تلك الصباحيّة عاد علي ليَحكي، لكن تلك المَرة ظهرتْ عليه أثار دِماء، قفزتُ مِن مكاني وسألت ماذا حدث؟

ظننت أنَّ زوج إحداهن مِمَن يُضاجعهن هذا الماجِن قد هبط عليه في إحدى ليلات زفافه، لكن ما حدث كان الأغرب.

قال: «**ذهبتُ كعادتي لتلك الزوجة التي انضمتْ لقائمة عشيقاتي، بعد أن أنهيتُ ليلتي هممتُ بالنزول من بيتها، لكن فجأة حدث هَرج ومَرج، نزلتُ سُلَّم البيت مسرعًا وفور أن وصلت للشارع سمعت أصواتًا تصرخ في المارة قائلةً: امسك حَراااااامي**».

كان الجميع يَضرب دون أن يعطوني فرصةً للإجابة، بعد أن شُقتْ رأسي وانبثقتْ منها الدِماء هاب الناس الموقِف وابتعدوا.

قال أحدهم: «**أنا أعرفه، إنه أحد أبناء القرية**» قلتُ: «**لست لصًا، كنتُ في زيارة لأحد أصدقائي**».

لا أحد حتى الآن يفهم ما حدث، فجأة بدأ التهامُس، ذلك البيت الذي خرجتُ منه لا ذكور فيه، فقط تلك المرأة التي كنتُ أضاجعها منذ قليل.

ترجم الناس الموقِف سريعًا، أدرَكوا أن الزوجة تخون زوجها، تركوني أذهب.

في المساء حضر الزوج وظلَّ يضرب زوجته أمام الجميع، سألها إن كان ذلك الشاب ضاجعها أم لا، قالتْ أنها لا تعرفني.

تَغافَل الجميع عن الحدث، قالوا ربما ظُلمتْ، وردد آخرون إنَّ الله حليمٌ ستَّار، كان قد طلقَها في موجة غضبه، لكن أولاد الحَلال اجتمعوا وأعادوها إلى عِصمته. وفي المساء نامتْ أعين أبناء القرية وكأنَّ شيئًا لم يحدثْ.

في اليوم الثاني أجرينا مكالمةً هاتفيةً، قالتْ: «**إنَّ من هَتف في الناس مدعيًا أنك لِص هو شابٌ كان يُريد أن يُضاجِعُها، لكنَّها فضَّلتني على هذا الشاب، فأراد أن ينتقِم من كِلانا، لذلك دبر تلك المَكيدة**».

انتهى عليّ من حديثه وقرر أن يذهب للحج هذا العام، فقد شعر أن ذنوبه أثقلته!

أما أنا فاكتفيتُ بالجَلسة المسائية مع حسين لتدخين الحشيش،

تلك السيجارة التي تُخرجك من عَبثية الحياة، لست في حاجةٍ لأن تستفسر مَن الإله، فقط لا عليك إلَّا أن تأخذ بِضعة أنفاس، شهيق، زفير، في النهاية ستصل إلى عالَم الأحلام.

***

أقام عليّ حفلًا صغيرًا للأصدقاء بعد عودته مِن الحج، كنتُ أنا وحسين وزملاء سهرة الحشيش وآخرون لا أعرفهم. وزع علينا عَطاياه، سِبَح، سِجاد الصلاة، الجِلباب الأبيض.

حضر وقت الصلاة. هبَّ الجميع للذهاب للمسجد، أما أنا فبقيتُ مكاني. رمقني عليّ بنظرة استغراب. علَّق حسين قائلًا: **«مش ناوي تصلي»**، أجبتُ بكل عَفوية: **«لأ»**.

نهرني عليّ وحسين، وأصابتني دهشة رُفقاء جلسة الحشيش، لكنَّني لم أكترثْ. انتهوا من صلواتهم ثم عاد بهم المَقام إلى بيت عليّ لإكمال الاحتفال بعودة الحاج.

في المساء ذهبتُ لحسين، وبدأتْ جَلسة الحشيش، شاركنا عليّ في تلك الليلة، لكنها مشاركةً رمزية، رفض تدخين الحشيش، قال: **«الحشيش حرام»**.

أخرج حسين صوتٌ مِن خَيشومه سمعه القاصِي والداني قال: **«يعني النَط على النِسوان اللي حلال، أوعى تكون فاكر إنك حَج بجد، انت كنت مسافر تشتغل يا روح أُمك»**.

علي تمسك برفضه، لم يُكملْ الليلة معنا. علي كان ومازال من أكثر الشخصيات التي تُثير دهشتي.

يرفض أن يساعدني من أجل إحضار زجاجة خمر لكنَّه يسعد حينما يزني بالأرامل والمطلقات، يمتنع عن شُرب سيجارة الحشيش في حين أنه لا يملْ من إتيان دروب النساء، في لحظة تظنه شيخًا جليلًا، وفي لحظات يتحول لراهبٍ في بَحر اللَّذة.

كنتُ أقول في نفسي أنه يعيش لحظاته لكن في نفس الوقت لا يُلقي بظِلال حياته على أحد، يُحب الجميع ولا يتردد في مساعدة مَن يطلب العَون، ليست له لِحية ولا يُصلي ويتشدَّق بالدِين مِثل أُناس لكنَّه يرفض أن يكون سبيل لإلحاق الأذى بأحدهم.

بعد أقل مِن شهرٍ وجدتُ علي أمامي وقد قال كلمته الخالدة: «**أنا صباحيّتي النهارده**».

***

أميرة

طالتْ وقفتها أمام المرآة. كانت تتجمَل وكأنها لن تخرجْ مرةً أُخرى. هل كانت تظن أن تلك المساحيق ستساعدها في أن تُخبئ ذلك الحُزن الذي تراكم طيلة خمسة عشرة عامًا وترك أثاره على عينيها.

بشرتها، تلك التي يظن الرائي أنها لامرأةٍ في العِقد السادس من عُمرها وليس لفتاةٍ في الثلاثين.

خرجتْ من المنزل وأغلقتْ الباب وخَلفه تركتْ رِداء الراهبة، ذلك الذي ترتديه في الكنيسة كل ثلاثاء، مَوعِد دَرسها الأسبوعي.

هبطتْ السلم ومع كل درجة ودعتها كانت تتذكر ما كان. كان حاضرًا في مخيلتها وكأنه كان بالأمس القريب وليس منذ عامين، كان قد أخبرها بالأمس وهما يتبادلان الحُب عن طريق (السكايبِ) أنه ما عاد يُطيق الانتظار، يجب أن يراها.

أخبرها أنه حضر إلى القاهرة ليُنهي بعض الأعمال ولن يبقى طويلًا، كان يُقيم في أحد الفنادق بميدان رمسيس. حسمتْ أمرها سريعًا. هي أيضًا كانت في حاجةٍ إليه، مرَّ زمن منذ أن بادلتْ أحدهم الحُب.

وقفتْ أمام الفندق وهالها منظره الذي يُرثَى له كان. عِبارة عن بضعة طوابق تنتصف أحد عِمارات شارع رمسيس العتيقة. توجهتْ لرَجل يقبع خلف صندوق خشبي عفَى عليه الزمن.

كان يمسك بصحيفة متجولًا بين أوراقها حين قاطعته سائلةً: «**الأُستاذ أَمجد وصفي لو سمحت**» فأجاب: «**غُرفة سبعة الدور الثاني**

على اليمين»، ترددتْ للحظة وهى تتوجه ناحية درجات السلم.

أخذتْ تُهيئ نفسها لتلك القُبلات الحَارة التي افتقدتها طويلًا. تحسستْ خِفيَةً موضع تُفاحتها وكأنها تستأذنها في مرور أحدهم اليوم.

علمتْ بعد ذلك أنَّ تلك اللحظة كانت سببًا في النجاة؛ فقد حدث هَرج ومرَج في المكان، وصدرتْ صرخات جاءتْ من الطابق العلوي، ثم شاهدتْ رجال الشُرطة يقتحمون الفندق، دفعها أحدهم بعيدًا عن درجات السلم مفسحًا الطريق لزملائه الذين اعتلوه في لحظات ليصلوا أعلاه.

وجدتْ نفسها تخرج مسرعةً حتى أصبحت في الشارع قبالة الفندق، وهي لا تعرف، هل استخدمت السلم أم قفزتْ مِن النافذة، صدمة الموقِف أعجزتها عن تلمس الحدث.

كان رجال الشُرطة يقتادون رجالًا ونساء من أعمار مختلفة، اشتركوا جميعًا في كونهم عُراة يلتحفون أغطية الأرائك لتُداري عوراتهم، وكان حبيبها بينهم.

أدركتْ أنها لم تَكنْ الأُولى، وأنه أراد أن يستغل أيامه في القاهرة ليسامر حبيباته واحدة تلو الأُخرى.

لم تنتبه لتلك الدمعة التي سقطتْ من عينيها وهي تلتفتْ عائدةً من حيث أتتْ والحُزن يعلو وجهها. ليس حُزنًا على حبيبها الذي اكتشفتْ الآن أنه لم يَكنْ لها وحدها، إنما حُزنًا على لحظة الحُب التي ضاعتْ، فمتى لها بلحظةٍ أخرى؟

***

ليستْ بعاهرة، فقط تبحث عن الحُب الذي تخلى عنها لسنوات. كانت كلما ذهبتْ إلى الكنيسة لتشكو للقِس حالها أخبرها عن قُدسية الرِباط، دائمًا ما يقول: «**مش مهم الجِنس، المهم رضا الرَّب على الزوجة الصالحة**».

في البداية رضختْ للإله، لكنَّها بمرور الوقت تعجبتْ، لماذا يتركها الله فريسةً لرجلٍ يعجز عن القيام بالواجبات الزوجية وقد أثبت الأطباء أنه لا أمل في شفائه؟

في النهاية لم تُطقْ صبرًا، فقد اتهمها الزوج بخيانته، قال أنها تمارس الجِنس مع آخرون لتُعوِض ما يعجز هو عنه، كانت من المُمكن أن تتحملَه لبقيّة العُمر، لكنَّها ليستْ بعاهرة، تركته وعادتْ لبيت أبيها.

حاول الزوج بمعاونة الأهل من الطرفين إعادتها، لكنَّها رفضتْ، ذهبتْ إلى المحكمة تَطلب الطلاق، لكن طلبها يُخالِف عقيدتها وأوامر الكنيسة، قيل لها لو بدَّلتي ديانتك ستُصبح المسألة أكثر سهولة، لكنَّها رفضتْ بشدة.

بعد شهور قليلة من عودتها للمنزل بدأ شعور الوِحدة يدب في أوصالها، جلستْ على جِهاز الكمبيوتر الخاص بها، تصفحتْ حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك).

ظهرتْ تلك الرسالة أمامها، كان أحد من قبلتْ صداقتهم حديثًا على صفحتها، كتب قائلًا: «**ممكن نتعرف؟**».

***

أدركتْ أميرة خبايا العالَم السِري، أصبحتْ تملك هي أيضًا عالَمها

الخاص، تذهب للكنيسة بانتظام، تُشارك في أعمال الخَير إرضاءً للإله، لكنَّها في المَساء تجلس إلى جِهاز الكمبيوتر الخاص بها لتبدأ رحلة البحث عن فريسةٍ جديدةٍ، عن جسدٍ يُطفئ هذا الشَبق.

أصبحتْ أميرة أكثر جُرأة، فبدأتْ في البحث عن شريك الليلة. لم تكتفِ بالانتظار حتى يقتحمها أحدهم، وكنتُ أنا هذا الشريك، أرسلتْ رسالة على البريد الخاص قائلة: «**ممكن نتعرف؟**».

تلك الكلمة الأزلية التي أصبحتْ سيئة السُمعة في أوساط عالَم التواصل الاليكتروني. لم أتردد طبعًا. فقد شممتُ رائحة هذا العالَم الذي أعشقه تدق أركان نفسي.

قالت: «**اسمي أميرة. مسيحية. أعيش في منطقة السيدة زينب**». قلتُ معقبًا بأريحيةٍ: «**مدد يا طاهرة مداااد**».

أرسلتْ تلك الضِحكة المصطنعة عَبر صندوق الدردشة على صفحة فيس بوك، والتي استبدلناها بالضِحكة العادية، بل وصِرنا نستشعرها أكثر من الحقيقية (هههه).

كانت تلك الضِحكة إيذانًا بالبدء فلم أتردد في البوح بمكنون نَفسي سريعًا لِتُدرك مقصدي منها. قالتْ: «**عندك كاميرا؟**». قلت: «**نعم**»، كان حديثها يفوح أنوثة، وكانت تأسرني بإباحيتها في الحِوار.

بدأتْ حديثها ونبرات الشَجن تعلو صوتها. أميرة أول من وهبتني مَلَكة الفضفضة، كنا نتواصل من حسابات وهمية، اتفقنا أن يَحكِي كلًا منا للآخر، وكانت القاعدة ألَّا نغضب من الحقيقة.

لا أعلم لماذا اختارتني أنا بالذات، ربما كانت تحكى مع آخرون، لكن

لا أظن أنها أَطلعَتهم في النهاية على شخصيتها الحقيقية.

في أحد ليالي الحَكي كانت حزينة على غير عادتها الضاحِكة، قالتْ: **«مش عايز يطلقني»** كانت صدمة دكتْ أركاني.

قلت: **«أنتِ متزوجة»** قالت: **«أنا منفصلة، بس انت عارف إحنا ما عندناش طلاق زي المسلمين، رفعتْ قضية في المحكمة على غير رغبة أهلي ورغبة الكنيسة، بس أنا مستحيل أعيش مع الراجل ده تاني، أنا أنتحر أحسن لي».**

أخذتْ تتحدث وكأنها تَعرفني منذ سنوات. قالتْ ولم تُخَبِئْ، حتى أدق تفاصيل عالَمها الأُنثوي أضحتْ واضحة المعالِم أمامي. أكملتْ حديثها: **«كنتُ قد أنهيتُ دراستي الثانوية منذ أيام حين دقَّ باب بيتنا ذلك العريس القادم من الجنوب. كان قريبًا لنا يعيش في أسيوط».**

لم أكترثْ لأنني سأعيش في الصعيد أو أنَّ العريس يَكْبُرَني بسنواتٍ. فقط تملَّكني شعور الرَغبة في الزواج. كنتُ أظن أنَّ حريتي واستقلالي سيكونان حقًا مكتسبًا بمجرد أن أُصبح زوجة.

تم الأمرُ سريعًا، ولم يمضْ وقت حتى وجدتُ نفسي في أسيوط مع زوجي. لم تمضِ لحظات حتى أدركتُ سِرَّ تأخره في الزواج. وأيضًا لماذا أراد أن يذهب بعيدًا ليتزوج من القاهرة، هو مِن المؤكد كان يبحث عن أُسرة لا تعرف عنه شيئًا.

بمجرد أن أصبحتُ بين ذراعيه وتلمست عَجزه في أن يُلهب مشاعري ثم يطفئُها بحيوانِه عرفتُ أنني تزوجت شبيه رَجل. لم يَكنْ يملك تلك القُدرة التي للرجال.

تحملته لأعوامٍ، الكنيسة عندنا لا تعرف الطَلاق، لهذا أدركتُ أنَّ الأمر حُسم وأنه ما من رجعةٍ. كان يُريد مجرد امرأة تُؤنِس وِحدَته وتكون خادمة له، بغض النظَر عن كَونها إنسانة لها رغبات واحتياجات.

لكن ليت الأمر وقف عِند هذا الحَد. بيد أنَّ عَجْز زوجي انطبع على سلوكه النَفسي. فصار أكثر شدةً وغرابةً. فبدلًا من أن نُمارس العِشق كأي زوجين صِرنا نُمارس طقوس يومية تبدأ بالضرب صباحًا وتنتهي بالضرب مساءً على أتفه الأسباب.

كنتُ الدُمية التي جاء بها ليُفَرغ فيها همومه. لم أُخبرْ أهلي بالمسألة. كنتُ أذهب للأب في الكنيسة وأعترف لعل ذلك يُخفف عني. لكنَّه كان يُحَدثني عن الرِباط الرَوحي وقدسية العِلاقة وتلك الأشياء التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

هل نسي أنني أنثى؟ أم أنَّ تلك الأعوام التي مضتْ دون أن تعمل ملكاتي أفقدتْ أُنوثتي رونقها فأضحيتُ رَجُلًا أو وسيطًا بين الذَكر والأُنثى؟

كنتُ على استعداد لتَحَمُل أنَّ زوجي يَعجز عن إتيان ما يفعله الرجال مع زوجاتهم. مِن المؤكد أنَّ الرَبَّ سيُبَدلني خيرًا في الآخرة. لكن قدرتي على تحمل معزوفة الضَرب والسَب من زوجي لم تعدْ كَذي قبل، خاصةً بعد أن أضحتْ شبه يومية.

وزاد الطِين بله بوفاة أبي. جاءني الخَبر كالصَاعقة، كان أبي الضوء الأخير الذي يعطيني الأمل في هذا العالَم بعد رحيل أمي قبله بأعوامٍ.

زاد زوجي إساءةً حين بدأ يظن أنني أَخونه مع آخرين، لم يَكنْ يتخيل أن هناك امرأة ستتحمل كل تلك السنوات بدون علاقة جنسية. حسمتُ

أمري وتركتُ زوجي وعدتُ لمنزل أبي بالقاهرة.

وفشلتْ كل محاولات زوجي وأهل أبي في إثنائي عن ذلك القرار. كنتُ قد حَسمتُ المسألة، ولا ضير من أنني أعيش وحيدة الآن، فأنا بالفعل كنتُ وحيدة لأحد عشر عامًا.

رفضت الكنيسة جميع تبريراتي. قال الأب: «**ماعندناش طلاق**». ضربتُ بالأعراف وتعاليم الكنيسة عَرض الحائط وتوجهتُ للمَحكمة.

كنتُ غير باكية على شيء. لن أظل بعد الآن على ذمة شبيه الرَجُل هذا. زادتْ وحدتي بفقدان أبي. لا أجد ما أُمارسه في حياتي. أدركتُ حَجم المسألة فور أن وجدتُ نَفسي أعيش وحدي في تلك الشَقة بحي السيدة زينب.

كنتُ أنا والوِحدة وجهاز الكمبيوتر القابع في منتصف الصالة وصفحة فيس بوك على شبَكة التواصل الاجتماعي. كنتُ قد تعلمتُ التعامل مع تلك الشبَكة لأتمكن من التواصل مع أبي في القاهرة.

أظل لساعاتٍ أعيش عليها تلك الحياة التي افتقدتُها في الحقيقة. حتى جاء ذلك اليوم الذي تعرفتُ فيه على ذلك الشاب المُسلِم، أحمد كمال. أسَرني بحديثه الخلَّاب في البداية، وقد استشعر حاجتي لإدراك مزايا أنوثتي المُعطلة.

توطدتْ علاقتنا وصِرتُ لا أتحمل أن يمرَّ يومًا دون أن أُحادثه وأُبادله الحُب سواء على الهاتف المحمول أو صفحة فيس بوك. كان الأمر ممتعًا وفي أقصى درجات الإثارة بالنسبة لي. أنا أتشوق للحُب منذ أعوام. ليس المهم كيف جاء؟ المهم أنه جاء.

طلب أحمد أن نتقابل. ذهبتُ إليه في شَقته. لم أتردد للحظة أو يُصيبني الخوف. لم يَكنْ هناك ما أبقى عليه في تلك الدنيا.

وقفتُ أمام الباب وأرسلتُ تلك الدقات الخفيفة ليأتي صَوته من خلف الباب مؤذنًا بالبدء، أخذني بين ذراعيه باشتياق وكأنه يَعرفني منذ سنوات. لم يتمهلْ حتى نَصل لغرفة النوم. قبَّلَني في كل مكان طالته شفتاه.

طالت قُبلاته، ومعها زاد توهجي واشتياقي. أخرج من بين جنباتي هذا المارِد. أدركتُ بين ثنايا شفتيه أنني لازلتُ أُنثى. نزع عني ملابسي حتى صِرنا أنا وهو لا حائل بيننا.

ومع اختراق حيوانه لتُفاحتي شَعرتُ بنيران تكاد تحرقني، ومع كل دفقه منه كانت تهدأ نيراني وتأمل لهفتي للمزيد.

لم تَكنْ تلك زيارتي الأخيرة. ظللتُ آتِيهِ شَقته كلّ يومٍ تقريبًا حتى مضت شهور على علاقتنا. نسيتُ بين أحضانه آلام الماضي، نسيتُ زوجي وسنواته العِجاف. نسيتُ الأب والكنيسة وإلهنا الذي في السماء. نسيتُ كل هذا ولم أعدْ أتذكر سِوى أحمد.

إلَّا أنَّ الدُنيا لم تمهلني طويلًا. بيد أن أحمد كان يبحث عن مومس وليس عن حبيبة. تغيَرتْ تفاصيل العلاقة وانتهى الحُب لتصبح المسألة مجرد دقائق يقضيها بين فخذيَّ وفقط.

اختفت كلماته الجميلة التي أغدقني بها سابقًا، حديثه عن الحُب وعني. أعرف أنه مسلِم وأنَّ لا أمل في الزواج. لكن مسألة أنه مسلِم وأنني مسيحية لا يمنعانه في أن يعاملني كإنسانة وليس كمومس أحضرها من الشارع.

زادتْ المسألة مع طلبه المتزايد للنقود. في البداية كان يتعلل بضيق ذاتِ اليد، كنتُ لا أستشعر حرجًا في إعطائه بعض الأموال حتى تزول الضائقة المالية. لكن زادتْ طلباته، وفاق استغلاله لأنني ميسورة الحال كل حد.

وعندما تمنعتُ عنه ظَهر شخصٌ آخر غير هذا الحبيب الذي كان. ولمَّا امتنعتُ عن الحضور لشقته ومطارحَتِهِ الغَرام أرسل رسالة على الهاتف المحمول فحواها أنه سَجَلَ كل تلك اللحظات التي جمعتنا سويًا.

كانت صفعة من الدنيا لم أحتملها. كانت قوية بمكان لتفقدني توازني. أحببته بحق. يَكفي أنه أول من فتح لي عالَم أُنوثتي وأَطلعني على مكنوناتي التي اختفتْ في ضروب زواجي الفاشل.

غير أنَّ قِلة خِبرتي بالحياة أعجزتني عن التصرف، كل ما كنتُ أبحث عنه هو إنسان يُشعرني بإنسانيتي. فكرتُ في الانتحار، لكن تراجعت.

قررتُ ألَّا أُجيبه في طَلبه، مرتْ أيام، أسابيع، لم يُنفذ تهديده، أدركتُ أنه لا يملك تسجيلات لتلك اللقاءات، كان يسعى لإخافتي وفقط».

– ليه حَكيتي لي أنا بالذات؟

– مش عارفه، كان نفسي أطَلع اللي جو ايا، كان نفسي حد يشاركني مشكلتي، عدتْ سنين كتير و أنا لوحدي، خلاص زهقت.

– خايفة مني؟

– يمكن ما بقتش أخاف، أو يمكن ما بقتش تِفرق. هيحصل إيه أكتر من كده.

– تخيلي أنا عندي حكاية شبيهة لحكايتك.

– بس انت لسه ما اتجوزتش؟

– فاهم، هي حكاية مش بنفس التفاصيل، لكن المعنى واحد، انتِ عيشتي سنين من حياتك تحت رِباط مُزيَف باسم الدِين وخسرتي أجمل لحظات عمرك. و أنا كمان ضيَّعت سنين من عمري تحت وهم ديني مشابه.

المُتعة حرام، اللَّذة مرفوضة، قُدسية العلاقة بين العبد والرب، ويوم القيامة ربك يعوضك.

– لكن أنا بنت في مجتمع شرقي وفيه سبب لعجزي. إنما انت إيه اللي منعك تتمرد على وضعك.

– أنا كمان كنت عاجز، طفل عنده 11 سنة أكيد هيبقى عاجز إنه يختار حياته، هو ما فيش في إيده غير إنه يسَلِم بالو اقع اللي اتفَرض عليه، ببساطة هو ما يعرفش غيره.

الكارثة إنه اكتشف في النهاية إن الواقع اللي عاشه كان غلط، كان وهم مش حقيقة.

– عادي ممكن يراجع حياته لمَّا يكبر. ويعمل اللي المفروض يحصل.

– المسألة مش بالبساطة كده. المَثل بيقول مَن شبَّ على شيء شاب عليه.

– مش فاهماك.

– الطفل اللي يفتح عينه على حاجة ويلاقيها كل دنيته، ويعيش كل تفاصيلها هو وكل اللي حواليه لسنين أكيد من المستحيل يتخلى عنها بسهولة، لأنه حتى لو اكتشف إنها غلط لما يكبر هيبقى ماشي عكس التيار لأن كل اللي حواليه أو معظمهم لسه فاكرها صح.

وبعدين تخيلي إنك تدمري حياتك اللي فاتت كلها وترجعي طفلة تاني عشان تبدئي من أول وجديد في مجتمع مؤمن إن هو صح وانتِ غلط، والأسوأ إنك هتستخدمي في رحلتك نفس الأدوات اللي اتعلمتيها على إيد المجتمع لإنك ما تعرفيش غيرها.

– انت حد غريب. معقد حياتك كده ليه، اعمل زيي وقضيها، أنا مواظبة على دروس الكنيسة وبعبد ربنا، وبالليل بتونس بالكمبيوتر وبعيش عليه اللي عجزت إني أعيشه في الحقيقة.

– ما دي كمان مشكلة، انتِ مش مُدركة إننا بقينا عايشين دنيتين، دنيا اتفرضت علينا مع إننا كارهينها وشايفينها غلط. ودنيا افتراضية بنرسم على أرضها الحاجة اللي هي أصلًا من حقنا.

الكمبيوتر ما هو إلَّا حِلم لكن في اليقظة مش واحنا نايمين، متعته لحظية، بتنتهي بسرعة وما بتسيبش أثر.

– ليه ما اتقابلناش قبل كده!

– حتى لو اتقابلنا ماكَنتش هتفرق، إنتِ ناسية إن الدِين هيبعدنا عن بعض.

– أنا حاسة إن الأديان دي اتعملتْ علشان تفسد أي حاجة حلوة في حياتنا.

– خلاص بسيطة، تحللي من دينك وما تربطيش نفسك بحاجة.

– ما ينفعش طبعًا، أنا ما اقدرش أبعد عن الكنيسة، دا حتى لما عرفت إني لو غيَرت ديانتي ممكن أطلب الطلاق بسهولة رفضت، أنا متأكدة إن ربنا موجود، لكن أتباعه في الأرض هم اللي أفسدوا صورته.

– بتفكريني بصديق مُسلِم اسمه علي.

– هو كمان عنده مشاكل مع زوجته.

– مش بالضبط، هو كمان مؤمن بربنا لكن بينساه لما يحب ويفتكره وقت ما يحب.

***

مولانا

أصبحتُ أكره أن يُقال لي مولانا، لستُ أنا الشيخ الذي تعرفونه، ينتفض جسدي حين يناديني أحدهم بذلك اللَقب، كنتُ أَتعمد أن أَسير عكس الاتجاه، إن كانوا هم الحلال فلتكن حياتي حَلقة من حلقات الحَرام.

وساوس دارتْ بمخيلتي وأنا أتجول في منطقة وسط البلد. أَترجل مِن الميكروباص بميدان عبد المنعم رياض وأَعبُرَ الطريق متجهًا لشارع محمود بسيوني، مرورًا بمَقر حِزب التجمع، الذي لا أُسقط عيني عنه كلما مررتُ به حتى الآن.

إنه مقر الكُفار الذي لازلتُ أخشاه حتى بعد أن تركت الجماعة، في الماضي كنتُ أَكبر منه فأنا المؤمِن، أما اليوم يُخالجني شعور غريب أنه الآن بات أكبر مني.

أَصِل لميدان طلعت حرب لأقف دقائق أتأمل المكان، أُقَدِم فروض الطاعة لمكتبة مدبولي ثم مكتبة الشروق، آخذ غنيمتي مِن الكُتب ثم أتوجه لمقهى الندوة الثقافية.

كان يُقام هنا صالون الأديب (علاء الأسواني)، بعد بضعة مرات من المتابعة توقفتْ الندوات، قالوا إنَّ مباحث أمن الدولة أجبرتهم على الرحيل.

لا أعرف مُلابسات القِصة، حكايات كثيرة ترددتْ، كان أغربها أنهم أخبروا القائمين على المقهى بأن ذلك الأديب شيوعي هو وأتباعه وأنهم غير مؤمنين.

لذلك كان يتعمد عم سعيد القهوجي تشغيل المُسجل على القرآن بصوتٍ مرتفع، ربما ظنًا منه أنَّ ذلك الشيوعي وزبانيته قد يعودون إلى الله.

لا أعرف إن كانت تلك القِصة حقيقية أم لا. لكن ورغم أنَّ علاء الأسواني لم يعدْ يحضر إلى مقهى الندوة الثقافية، ورغم أنني لم أَكنْ قد استوضحتُ بعد هل الشيوعي كافر أم مؤمن؟ وهل الجلوس على المقاهي حلال أم حرام؟ إلَّا أنني كنتُ أهتم بالحضور لِما كانت تُمثله لي تلك البُقعة من مصر.

منطقة وسط البلد كانت تُمثل في عقيدتي حينها مركز الحرام، لم أَكنْ أحضر إلى ذلك المكان لأنني أحترم قاطنيه أو أنني أُقدر الدور الريادِي الذي تقوم به مراكز الثقافة المستقلة بذلك المكان، بل كنتُ آتيه بحثًا عن الحرام.

أتلمس الطريق لمحلات الخُمور، أقف مشدوها أمام زجاجات الويسكي والنِبيذ، أختلس النظرات لتلك الفتيات الجالسات بصحبة شباب على المقاهي وقد تَعرَّتْ شعورهن.

تعلوني الدهشة من تلك الفتاة التي تُدخن الشيشة بكل جُرأةٍ وتُصاحِب كلماتها ضحكات ماجنة، أتمنى لو بادلتني إحداهن نظرة عشقٍ حرام، أحلم بتلك الفتاة الشقراء ذات العيون الملوَنة وقد قامتْ من مكانها وتوجهتْ ناحِيَتي ثم أخذتني عنوة لأحد الأركان البعيدة عن أعين الجالسين لتُغرِقني بشفتيها.

أتساءل لماذا لا يكون؟ وأقول لنفسي إنها من المؤكد تفعل ذلك مع الجميع، فطالما هي ليستْ محجبة فهي مُباحة، فالمحجبة فقط هي مَن

تحترم جسدها لأنها دارته عن أعين الناس وحفظته مِن نظراتهم.

سنوات ثلاثة أحضر إلى منطقة وسط البلد وأُكرر نفس الطقوس المعتادة، مع تغير بسيط في مكان المقهى.

فكثرة التنقل في الشوارع المجاورة كشف مقاهي أخرى، كانت بالعَشرات، وجميعها تحمل في طياتها فتيات سافرات، وكلهن جميلات، ودائمًا أجلس منفردًا، فكل أصدقائي في السابق بلا استثناء يؤمنون أنَّ الجلوس على المقاهي فِعلة لا يأتيها سِوى الدُهماء، العاطلون.

وإن جلستْ على إحداها فتاة فهي من المؤكد تبحث عن زبون! أنا نفسي لم أَكنْ أعرف فيما جلوسهم هنا؟ ولماذا يعج ذلك المكان بهؤلاء؟

دخلتُ تلك الأماكن لأنها الطريق الآخر، لأنها مثلتْ رد الفِعل. إن كانت الجماعات الإسلامية تُمثِل الحلال، فسوف أقضي عليهم بالحرام الذي يعيش هنا.

لكن طالت المسألة ولم أشربْ كأس، ولا مارست الجِنس مع إحداهن، ولم أجدْ سيجارة الحشيش التي كنتُ أظن دائمًا أنها ربما تسقط في الطريق مِن أحدهم فألتقطُها أنا.

لذلك كنتُ أتعمد أن أسير دائمًا مطأطئ الرأس مدققًا النظر في الإسفلت على أمل أن أجد تلك السيجارة المنشودة، لكنَّ أحدهم لم يكنْ يُسقِط تلك السيجارة.

***

تحولات عالَمي بين الحلال والحرام جعلتها جميعها مبتسرة، فأنا نِصف شيخ ونِصف عاصٍ، أعرف القليل عن أهل الله، وأعرف الأقل

عن أعدائه.

حتى الأصدقاء، فلا أملك هنا ولا هناك أصدقاء بالمعنى، ربما واحد هنا وواحد هناك، لكن في نفس الآن أنتظر ذلك التحول المعهود حتى يشدّوا الرِحال بعيدًا عني هم أيضًا.

يعجز الكثير مِن هؤلاء الذين يختلطون بي في تلك الرحلة عن ترجمة سِر كُرهي للجماعات التي تحتَكر الدِين، لكنَّ أحدهم لن يجد ترجمة إلَّا إذا شاركني الرحلة.

علي، حسين، سالي، أميرة، والعشرات غيرهم كانت علاقتي بهم مجرد أسابيع أو شهور، ربما بِضع سنوات، لكن في النهاية يرحلون فجأة، كما دخلوا تلك الحياة فجأة، وأظلُ وحدي أُلملِم أجزاء نفسي التي بعثرتها تحولاتي.

***

يجب أن أُبدِل المَعارِف، الأصدقاء، الأماكن التي أَرتادُها باستمرار، الكُتب التي أقرأها، وفي نفس الوقت يجب أن أنفصل بالكُلِيَةِ عن الماضي، لا دِين بعد الآن.

***

بعد دقائق مِن الانتظار حضر الروائي الذي تُقام ندوة اليوم بمكتبة بدرخان على شرفه، توجهتُ ناحيته مع آخرين للترحيب، وقفتُ في نهاية الصف وانتظرتُ حتى انتهى الجميع ثم مددتُ يدي بالسلام.

علتْ وجه الروائي ابتسامة رقيقة وقال: «**إنت اللي بعت لي رسالة على فيس بوك و أبديت إعجابك برو ايتي الأخيرة**».

قلت: «**أيوه أنا، ومُتشوِق للجديد مِن حضرتك**».

وضع يده على كتفي وبطريقةٍ ودودة ربت عليه فهزني شعور داخلي أجبرني على ملازمة ذلك الرجل، كنتُ على يقين أنني سأجد نفسي في صُحبته.

لم أتخلصْ بعد من رغبة أن يكون لك شيخ يهديك الطريق. كنتُ أُصِر في ذلك اليوم أن أَنهى على صَمْت السنوات الثلاثة، فلن أظل منفردًا بعد الآن، وكنتُ على يقين أنني سأخرج من ذلك المكان بأصدقاء من غير المنتمين للجماعات. فرجال الدِين لا يحضرون مثل تلك الندوات التي تُلهي عن ذكر الله.

***

لم أكنْ أتخيل أن أُصبح وذلك الكائن الصامت أصدقاء، فأنا كثير الكلام أما هو فكثير الصَمْت.

كنتُ في أوقاتٍ عِدة أُحصي عليه الكلمات، ربما زادت كلمة أو اثنتين عن أخر اللقاءات. إلى جانب أنني ظننته زيرَ نساء، كان يعاملهن برقةٍ شديدة واحترامٍ غريب على ثقافة الرَجل العربي.

لكن وعلى غير المُنتَظَر مِن ساعي خلف الحرام تجنبته، قلتُ لن يهتم ذلك الشاب بمصاحبة رجال.

استغرقتُ عامًا كاملًا من الصداقة لأعرف أنه مهندس بشركة المقاولون العرب.

وبضعة شهور لأكتشِف أنه يكتب القصة القصيرة، نعم كانت له كتابات على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك، لكن ذلك ليس مؤشرًا

أنه يكتب بصورةٍ احترافية.

محمود سعيد كان أحد أربعة تعرفتُ إليهم في ندوة مكتبة بدرخان، بالإضافة إلى أحمد صالح، وحسن سلامة، ومحمد ناجى.

أصبحنا نتقابل بشكلٍ دوري في منطقة وسط البلد، لم أعدْ وحيدًا الآن، من المؤكد أنني سأجد الملاذ مع هؤلاء، قلتُ في نفسي شباب لا يكترثون بالأديان ويغتنمون كل دقيقة في حياتهم لتكون مُتعةً ولَذة.

كان هؤلاء الأربعة المقابل لعالَم الجماعة، فإن كنتُ أنا الآن أعيش في الحرام فيجب أن يُشاركني رحلتي عُصاة، إلَّا أنَّ محمود سعيد تسبب في ربكةٍ أفقدتْ كل حساباتي توازنها.

ذلك أنه في بعض جلساتنا كان يختفي لدقائق ثم يعود، في البداية لم أهتمْ، إلَّا أنه وفي تلك المَرة التي كنا نجلس فيها في مَطعَم بشارع قصر النيل اقترب محمود سعيد وهمس في أذني قائلًا: «**أنا رايح المسجد**»، ثم انصرف.

صفعتني كلمته حينها، قلتُ، ربما ذهب ليستخدم دورة مياه المسجد، لكن تلاشى ذلك الرأي سريعًا لأن المَطعَم به دورة مياه، سألتُ نفسي حينها وهل يُصلي هؤلاء أيضًا؟ كيف يُقيم شعائر الإسلام مَن يحاربها.

ثم كيف وأنا ابن الجماعة الدينية أجلس لأرتوي المزيد من البيرة في حين أن ذلك الذي لا يعرف الله يذهب إلى المسجد ليُصلِي؟

بعد بضعة أيام قابلتُ محمود في ميدان طلعت حرب وذهبنا لنُقابل باقي الأصدقاء، قبل أن نصل إلى المقهى استوقفني محمود وطلب مني أن أنتظره لبرهة.

تبعته حينها فوجدته يدخل إلى أحد المساجد المجاورة، أيضًا في تلك المَرة قلتُ ربما يستخدم دورة المياه الخاصة بالمسجد، من المؤكد أنه لا يُصلي.

تكرر ذلك الموقف واستبينتُ حتى تأكدتُ أنه يُصلي، كان يُواظِب بشدة على أداء الصلاة، حتى عندما نكون في محطات المترو كان يُصلي إن داهمه وقت الصلاة، الأغرب أنه عندما يصلي في المترو ذلك معناه أنه على وضوءٍ دائم.

كانت الصَدمة الأكبر من ذلك مع صديقي (أحمد صالح)، هو شاب يَساري ومن أُسرة يَسارية أيضًا، خرج من السودان هاربًا بعد أن أهدرتْ الجماعات الإسلامية دَمه، أي أنه من المؤكد كافر.

لكن في أحد الحوارات التي دارتْ بيننا جاءتْ سِيرة أحد شيوخ السَلفية المهتمين بدراسة الحديث، فوجدتُ صديقي السوداني يتحدث عنه دون أن يُسئ، بل كان مُلمًا بمسائل خاصة بعِلم الحديث لا تتأتَى إلَّا لدارسي ذلك العِلم.

هنا لم أُردْ أن أُفوِت المسألة وسألته كيف له يعرف تلك المعلومات وكانت المفاجئة، أنه ليس فقط على علمٍ بتلك المسائل، بل أيضًا ساهم في رسالتين للدكتوراه عندما كان في السودان يتعلقان بعِلم الحديث.

وكانت المساعدة التي يقدمها للباحثين عائدةً لإلمامه الشديد بذلك العِلم، لكن أيضًا ليس ذلك هو المدهش في المسألة.

المُثير للإعجاب أنَّ مساهمته تلك حدثتْ وهو طالب في التعليم الثانوي، وجاءتْ بتزكيةٍ من دكتور جامعي كان يَعلم بمدى عِلم صديقي السوداني.

وزادتْ المسألة تعقيدًا عندما تعرفتُ عن طريق أصدقائي الأربعة إلى آخرين، كان من بينهم فَتيات غير محجبات.

كنتُ حتى تلك اللحظة أَنظر إلى الفتاة غير المُحجبة باعتبارها فتاة شمال، أو في أقل تقدير غير مؤدبة وفي حاجةٍ لرَجُلٍ يكسر شكيمتها، إلَّا أنَّ الفتيات اللائي عرفتهن عن طريق تلك المجموعة كانوا وكأنهم من عالَمٍ آخر.

إحداهن رغم سِنها الصغيرة كانت تدرس القانون في الجامعة وحصلتْ على الماجستير من السوربون بباريس.

الأُخرى كانتْ تعمل أُستاذة بالولايات المتحدة وكانت تأتي للقاهرة خصيصًا لتُشارك في التظاهرات بعد ثورة 2011م في الوقت الذي خذلتْ فيه الجماعات الدينية الجميع وانسحبتْ من المشهد الثوري لتضمن كُرسي الرئاسة في مصر.

فتيات كنَّ يُشاركن في الأحداث بكل إخلاص في الوقت الذي لم تَكنْ فيه الجماعات الدينية تهتم سِوى بالاستفسار عن سِر وجود فتيات في المعركة واعتبروه اختلاط مُحرَم واتهمتْ بعض القنوات الدينية الفتيات صراحةً بأنهن يذهبنَ كي يتحرش بهنَ الرجال!

كانت القضية التي أجبرتني على أن أُعيد قراءة كل ما فات من جديد ذلك الحوار الذي دار مع الأصدقاء عندما صَرَّحتُ بكل أريحية أن لي أصدقاء مُلحدون.

فبدأ النقاش بكل هدوء لأجد نفسي في نهاية المطاف في موقف المدافع عن نفسي وكأني أقِف في لَجنة مكافحة الإلحاد بالأزهر.

وأخذ كل واحدٍ منهم يتحدث عن رُقي الإسلام وعظمته وكيف أنَّ أتباعه دنَسوه أمام الجميع بأفكارهم المغلوطة، هُنا بدأتُ أشك في كل شيء من حولي، فلا الجَنة كانت هي الجَنة ولا الحرام هو الحرام، تهاوى كل شيء وبدأتُ أرسم حياتي من جديد.

***

بائع

عملتُ بائعًا متجولًا بعد تركي المحاماة، كانت مهنة امتهنتُها أثناء الجامعة لإعانتي على مصاريفها، وبعد عجزي أن أَصير محاميًا عدتُ إليها.

لم تَكنْ تحتاج لمواجهة، أنت تعرض منتجًا والعميل له أن يقبل بالشراء أو أن يرفض، وكانت تتميز بأنها ليستْ في حاجة لأن أعتلي أسوار القرية، أي أنني خرجتُ من غرفتي في المنزل لغرفةٍ أوسع نوعًا ما.

في العام 2009م توجهتُ لصيدلية على أطراف قريتي لأَعرض منتجي هناك. وجدتُ شابًا ملتحيًا وقد انكَفَأ على كِتابٍ وكأنه يلتهم قِطعًا من اللَحم.

تعجبتُ في بادئ الأمر، ذلك عندما أدركتُ أنَّ الكِتاب في يديه ليس من كُتب الشيوخ، كان يقرأ في رواية، لعلَّه يُحاول أن يخرج من سطوتهم هو الآخر.

بعد حوار خفيف دار بيني وبين الصيدلي طلبتُ منه الكِتاب كي أقرأه، تعجب من هذا البائع المتجول رث الهيئة الذي يطلب كِتابًا، أعطاني إياه دون اهتمام وكأنه يرى أنه ليس إلَّا مجرد تطفل مِن عابر سبيل.

عدتُ له بعد يومين بالكِتاب وناقشته فيه، هنا اهتم بمُحَدِثه وبدأتْ بيننا صداقة دامتْ إلى اليوم، وله يَعود الفضل في كسر أول أسوار انسحاقي.

لم يَكنْ عضوًا في الجماعة، ولم يَكنْ سَلفيًا، ولا صُوفيًا، كان إسلاميًا وفقط، غير أنه يسمع الموسيقى ويقرأ الروايات، ويُشاهد الأفلام، ويُقدس العِشق. تفتحتْ معه آفاقي في القراءة.

اتصل بي في تلك الليلة وطلب مني الحُضور إلى الصيدلية لأمرٍ عاجلٍ. أخبرني حينها أن وزارة الثقافة تُقيم دَورةً تدريبيةً تحت عِنوان (تنمية مهارات البحث في مصادر المَعرفة).

وأنَّ تلك الدَورة من القيمة بمكان نظرًا لأنها مدعومة من وزارة الثقافة ودار الكتب والوثائق القومية، وأيضًا لأنه يُحاضِر فيها العديد من النُخب الفِكرية والسياسية وأساتذة الجامعات في مصر حينها.

غير أني لم أقوَ على الموافقة، كنتُ أرى في نفسي أنها أقل من خوض هذا الأمر، وزاد انتقاصِي لنفسي عندما أخبرني أنَّ هناك ثَمة مقابلة أشبه بالامتحان والذي مِن المُفتَرض اجتيازه أولًا قبل الانضمام لتلك الدورة.

صدرتْ عني حينها ضحكة ساخرة وقلتُ له: «**لا طائل من وراء مجهودك**»، لكنَّ الدكتور أَصَرَ على خوضي غمار التجربة، وأكدَّ أنني أقدر على نَيل أحقية تلك الدورة التدريبية، فجاريته في الأمر حتى لا يغضب وقلتُ لنفسي سينسى الأمر فور أن أذهب.

طلب مني كتابة تعريف لنفسي وإنجازاتي مثل الاسم والعنوان والمؤهلات والدورات التي حصلتُ عليها، فزادتْ تلك الضِحكة الساخرة، ذلك أنه ليس هناك ما يُكْتَب.

بعد معاناة كتبتُ بضعة أسطر لم تُجاوزْ حتى نصف الورقة وأعطيتها إياه، وقام هو بإرسال البيانات إلى الوزارة وتقدَّم إلى الدورة عن طريق

إيميل أنشأه هو باعتباره أنا.

***

لم أُصدقْ أُذني حينما أتتها تلك الموجات التي حملت أحرفًا وكلمات عَبر أسلاك الهاتف لتُخبرها أنه تمَّ قبولي في دورة تنمية مهارات البحث في مصادر المعرفة التي تُقيمها وزارة الثقافة تحت إشراف دار الكُتب والوثائق القومية.

تذكرتُ تلك الورقات الإحدى عشرة التي حملها أحد المتقدمين والتي قارنتها بما يَقل عن نصف ورقة حملتْ حياتي ومُنجزاتها، بل وتلك الشهادات العلمية والدورات التي زينتْ الحاضرين حتى جعلتني في آخر الصف.

تذكرتُ تلك الخطوات المرتعشة التي ساقتني إلى غُرفة الاختبار داخل مبني دار الكُتب والوثائق القومية الواقع على كورنيش النيل، وتذكرتُ معها تلك اللعنات التي صببتها على نفسي أن وافقتها على الحضور معتقدًا أني بهذا ألوح براية الإهانة لكرامتي إن هي فشلتْ في هذا الاختبار.

غير أنَّ الأمر قد نَفذ فتوجهت مع بعض المتقدمين للاختبار لأماكن الجلوس، وانتظرتُ ورقة تُوَزَع علينا تحوي تساؤلات نُجيبُ عنها كالمعتاد في بلدي، إلَّا أنَّ ما حدث كان غريبًا وجديدًا على مسامعي.

وجدتُ أحد الممتحنين يسأل الجالس بجواري: «**هل تقرأ الصُحف والمجلات؟**» قلتُ في نفسي: ربما يُمَهِدون للاختبار بمحاولة تهدئة الأمر وإزالة المخاوف من نفوسِنا، فرَدَّ قائلًا: «**نعم**».

فسأل المُمتَحِن: **«وأي الجرائد تقرأ؟»** فرَدَّ عليه: **«جريدة الدستور»**، فسأل المُمتَحِن: **«وما اسم رئيس تحرير الدستور؟»** فرَدَّ: **«إبراهيم عيسى»**.

لم أكنْ حتى اللحظة قد أدركتُ مَغزى الجلسة وتساؤلاتها، هل بدأ الاختبار حقًا؟

وجدتُ المُحاضِر يلتفت إليَّ قائلًا: **«هل تعرف الجَبرتي؟»** قلتُ: **«نعم»**، وعقبتُ: **«إنه صاحب كِتاب التاريخ الأشهر تاريخ الجَبرتي»**، ووجدتُني أسترسل في الكلام قائلًا: **«غير أني لم أقرأْ له»**.

وأضفت أنني أعتمد في قراءاتي على كُتب التاريخ التي سَطرها معاصرون، فرَدَّ المُمتَحِن: **«لكن تلك الكُتب تحمل أخطاءً تاريخية في مُجملها لأنها خرجتْ عن أُناس غير متخصصين في دراسة هذا الأمر ولا تعتمد على الوثيقة ومصادر المعلومة من منبعها»**.

فعقبتُ: **«فلهذا أتيتُ هُنا كي أتعلم من أهل الثقة»**.

ندَتْ عن وجه المُمتَحِن ابتسامةٌ خفيفة بِرَدِي ومن ثَم حوَل دَفة الأسئلة للآخرين.

كانت الأسئلة في مُجملها تسعى لاكتشاف الباحث عن المَعرفة بداخلنا، لم تكنْ تبحث عن أكثرنا حِفظًا ولا أعظمنا شهادات ودورات، إنما كانت تبحث عن حُب المَعرفة بداخلنا، فلن يهتم بالبحث عن مصادر المَعرفة سِوى ظمآن لدروبِها.

أخرجتني تلك الدَورة من تيهٍ دَبَّ في عقلي لسنوات، بدأ منذ تحَلُلي بالكُلية أو هكذا ظننتُ من تَبعيَة الجماعة، فلم يَكنْ من السَهل الخروج

من ربقتهم.

فالدِين والجماعة صارا مفهومًا واحدًا، فأنا إن تركتهم تركتُ الدِين، هم الأصل، هم الفارس المُنقِذ لذلك التِيه الذي يدبُ في أوساط المسلمين، فتركي لهم يعني بمفهوم المخالفة أنني أنا العَبد العاصِي، وأنني أنا الذي عجزتُ عن التأقلم في صفوفهم، فاخترتُ المعصية بديلًا لهم.

لم يَكنْ ذهني يُدرك بعدْ أنَّ ترك الجماعة لا يعني بالضرورة تَرك الدِين، وأن مخالفتهم لا تستوجب المعصية كي أُثبت لنفسي أني تحلَلتُ منهم.

وكان تِيه آخر أخذني في دروبه لسنواتٍ، غَلَّفه البُعد عن الدِين، لا أقول إلحادًا بالمعنى الدارج، فالإلحاد يستوجب إنكار وجود الله، أما أنا فكنتُ أقف دائمًا عند مفهوم الإله، أما ما عَداه فقد لفظته بالكُلية.

هل كرهتهم ولهذا كرهتُ الدِين فيهم؟ أم أنني أردتُ أن أُثبت لنفسي أني تركتهم؟ كان الأمر جدّ صعبًا.

الآن تحللتُ من المُسمى، غير أني لا زلتُ أحيا الفِكر والمنهج، فالآخر كافر طالما لم يوافقني في مفهوم إقامة الدولة الإسلامية من منظوري، أو على أقل تقدير عاصٍ يُستتاب.

والغناء حرام، والفن ملهاة، والقراءة درجات، العِلم الشرعي فقط هو الذي ينفع، حتى الآن أستكثر على نفسي أن أشتري رواية مرتفعة الثمن، كنتُ أرى أنني هكذا أُلقي بمالي أرضًا دون فائدة من ورائه.

ما زلت لا أتجرأ إلَّا على شراء كُتبهم، وما زالتْ في نفسي شُبهة تجاه

العِشق، وما زلتُ أنظر للمرأة تلك النظرة الحِسية التي تخرجها من إنسانيتها لأداة يُمارس معها الرَجُل الجنِس وفقط.

وما زلت أحيا داخل نظرية المؤامرة، وأن العالَم أجمع تحالف ضد الدِين والمسلمين، وكأن الغرب تَرك أموره وفرغ للمسلمين وقضاياهم.

وانغمستُ في المعصية بمفهوم الجماعة، وعشتُ الحياة وصِرت عالمًا بدروبها، وطرقت أبواب النساء، وتلمستُ الخمر والمخدرات، وكدتُ أقتل نفسي في أحيانٍ أخرى لأنزع من الدنيا هذا الشاب الذي حلَّ عليه غضب الإله.

غير أن الهم صَرعني فلزِمتُ بيتي لسنواتٍ، هل كانت حالة اكتئاب اعترضت رحلتي؟ ربما.

***

عاطل

تذكرتُ وقفتي وأنا طالبٌ في الصف الأول الابتدائي أمام أستاذ اللغة العربية عندما سألني: «**نفسك تطلع إيه؟**» كان رَدِي حاسمًا حينها: «**طبيب**» وتذكرتُ أيضًا أنَّ تلك المهنة كانتْ رد الجميع. كان قد تَمثلَ المستقبل فيها.

أدركتُ بعد ذلك أنَّ الهَدف ليس أن أكون طبيبًا وفقط. إنما الهدف هو أن أكون إنسانًا. تَحولتْ تلك المهنة لرمز لأبناء مجتمعاتنا الفقيرة. رمز يحوي الخَلاص من حيواتهم البسيطة وألمها.

شعورنا الجَمعي كان يقودنا حينها إلى معالِم أُخرى ترْجَمتُها أريد أن أكون إنسان.

كان أبي وكل من حولي يدفعوني دفعًا لتلك الرغبة. تذكرتُ ذلك اليوم الذي سمعنا فيه صراخًا يَصدر من منزلٍ مُجاور لمنزلنا. أمسك الأبُ بسَوطِه وأخذ يضرب أبناءه مرددًا كلمةً واحدة: «**هو ابن الشيخ أحسن منكم في إيه يا ولاد الكَلب**».

اهتمامي بالمسألة أنساني طفولتي. انكببتُ على دراستي منذ الصِغر وكنتُ الأول دائمًا. وبعد أن كان أمل الأُسر في محيط سَكنى أن يَصير أبنائهم أطِباء أضحى أملهم أن يصيروا مِثلي.

في لحظةٍ ما تبدَّلتْ رِحلتي لمساراتٍ أُخرى. ذلك أني اكتشفتُ أنَّ الأمل ليس في أن أكون طبيبًا بالذات. إنما في أن أكون نفسي.

فتحولتْ المسألة من الاهتمام بدراستي التي اكتشفتُ أنها عَقيمة

ولا أمل من ورائها إلى أُخرى نتج عنها أولًا: أنني لم أعدْ الأول دائمًا في دراستي. ثانيًا: أنني بدأتُ طرق أبواب العمل باكرًا جدًا.

الأُسرة الفقيرة لا تملك سِوى ما يسد الرَمق. فإن أردت أعلى من هذا درجة فعليك أن تعتمد على نفسك. فأنت كي تشتري كِتابًا فعليك أن تملك ثمنه أولًا.

كنتُ أصرف راتبي على صِغر حجمه في شراء الكُتب. كنتُ أعرف أني سأجد إجابة بين أوراق كِتابٍ ما. حتى الآن كلما امتلكتُ كِتابًا قلَّبتُ صفحاته مرةً واحدة وكأني أنتظر جُملة أو عبارة تناديني تكون هي السبيل.

لا أنسى تلك المَرة التي طَلب مني رئيسي في العمل أن أُنظف مسارات الصَرف الصحي الخاصة بمطبخ الفندق الذي أعمل فيه، ولم أملك سبيلًا حينها سِوى يدي.

لم أجدْ غضاضة في الأمر. ذلك أني كنتُ أضع المستقبل المُشرِق أمامي دائمًا. أقول لنفسي غدًا تكوني. ستصبح تلك الذكريات رحلة كفاح تسطُرينها وتتباهين بها أمام أبنائك وأحفادك.

تنقلتُ من عملٍ لآخر، جميعها أعمال متدنية. ما بين عامل نظافة وبائع متجول أو بائع في مَحل، وكان من بين تلك الأعمال مُساعد نَقَّاش.

تذكرتُ كيف أدركتُ حينها أني مُصاب بفوبيا الأماكن المرتفعة. ذلك يوم أن طَلب مني صاحِب العمل أن أعمل على دهان واجهة العِمارة.

كان لِزامًا عليّ أن أقف على لوحٍ خشبيّ مُثَبت بطريقةٍ ما أمام الواجهة. صعدتُ حتى وصلتُ للطابق الثاني وما كان مني إلَّا أن تخشبتْ

أعضائي ولم أقدرْ على الاستمرار، لم يكترثْ صاحِب العَمل ولا العُمال لأمري وتعالتْ ضحكاتهم.

في العام 2003م انتظمتُ بالعمل داخل مركز للتجميل بحي الزمالك. كان ارتقاءً نوعًا ما في نوعية العمل، عِلمًا بأنني مجرد عامل، لكن نظافة المكان والمستوى الطَبقي لمن تتعامل معهم داخل المركز يأخذك لعوالِم كم تمنيتُ أن أحياها.

بعد مرور أقل من 60 يومًا على وجودي في هذا المكان حدث ما أزعجني وجعلني أُدرك ما أنا فيه.

كنتُ أعمل على تنظيف أحد الأدوار بالمركز وفجأة وعلى غير توقعٍ توجهتْ ناحيتي إحدى العميلات بالمركز وكانت فتاة في نفس عمري تقريبًا وبِدون أن تنطق بأي كلمة وقفتْ قبالتي ومن ثَم وضعتْ شيئًا بيدها داخل جيب قميصي ثم انصرفتْ بهدوء.

لستُ بهذا الجَمال كي تنجَذب إليّ إحداهن وتعطيني خِطاب عِشقٍ. وضعتُ يدي داخل جيب قميصي لأُخرج منه بِضعة جنيهات، كانت تتصدَّق على هذا العامِل البسيط.

أصابتني رعشة تألمتُ لها غير أني أدركتُ موقعي من تلك الدُنيا فكتمتُ حُزني وأكملتُ عَملي. فمَن أنا كي أحزن؟ حتى وإن حزنت فمَن أنا كي يكترث أحدهم لهذا الحُزن؟

بعد بِضعة دقائق أُخرى وجدتُ نفس الفتاة تأتي ناحيتي في صُحبةٍ أُخرى وتَكررَ نفس الأمر، في هذا المساء قررتُ ألَّا أعود للعمل، هل غَضِبتُ لكرامتي أم أنني أعف نفسي.

الصدقات والزكاة ليست عيبًا يتبرأ منه الإنسان، بل في بعض الأحيان يكون حق للفقير. لكنني لم أجدْ ترجمة لتلك المسألة بعد.

***

أجلسُ على أرضية أحد مطاحن البُن الشهيرة بشارع الملك فيصَل، كان عملًا آخر بعد تركي لمركز التجميل، أضعُ أمامي رغيف خُبز أغمسه في كوبٍ من الشاي.

كنتُ في فترة الراحة وسط يوم عمل شاق، ذلك حين دخل علينا صاحِب العمل بصحبة آخر، وهو يُشير تجاهي ويُخبره أنَّ هذا الجالِس على الأرض حاصِل على ليسانس حقوق، وهو أحد العُمال بالمطحن.

ندَتْ عن الآخر نظرة استغراب، لم يتورع عن نَهري أنه كيف لي أن أُنَجِسَ تلك المهنة الشريفة، وأعمل عملًا متدنيًا هكذا دون أن أحترم قدسية مهنة المحاماة.

أردتُ أن أصدر صوتًا مميزًا من خيشومي مُتعَارَف عليه في مثل تلك المواقف لأُخبره رَدِي على تلك المهنة المقدسة وكيف أنها كفتني شر سؤال اللئيم.

خرجتُ من مطحن البن غاضبًا عازمًا ألَّا أعود. أخذتني قدماي إلى منطقة وسط البلد. سِرت في شارع طلعت حرب ومنه إلى شارع 26 يوليو ومن ثَم جلستُ على أحد المقاهي بميدان عُرابي.

توجَه قبالتي شاب في العِقد الثالث من عمره يحمل أدوات ماسحي الأحذية على كَتفه وتقدم مباشرةً إلى قدمي دون استئذان وقال: «**مش حرام الجزمة يا بيه، لازم وش نضافة**»، لم أنتبه لحذائي الذي اختفتْ

معالِم سوادهِ من طول المَسير.

قلتُ: «**مارس عملك ولكن لا تأمل الحصول على نقود**». وأبرزتُ جيب بنطالي لأُخبره الحال وما آل إليه.

وقلتُ: «**محامي عاطل**». ضحك الشاب وقال: «**ولا يهمك**». بدأ في ممارسة عمله، وفي أثناء لحظات تجليه في تلميع الحِذاء تحدَّث ببعض الكلمات من اللغة الفرنسية.

نظرتُ إليه باندهاش، قال: «**لا تتعجب**»، ورسم على وجهه بسمة رضا. أخبرني الشاب أنه حاصل على مؤهل عالي في دراسة اللغة الفرنسية، وأن عمله ماسح أحذية هو السبيل المُتاح لمن لا يملك واسطة أو علاقات تُمكِنه من العَمل في مكانٍ أرقى.

عندما رفعتُ رأسي لأعلى قليلًا ونظرتُ لمن حولي وتحررتُ من دائرتي الذاتية لأنظر لدوائر أكبر وجدتُ أنني لستُ وحيدًا في هذا العالَم. معظمنا قال في صِغره للأستاذ: «**طبيب إن شاء الله**».

مرتْ سنوات بعد تلك الحادثة وأنا شبه قانع بحالي. لكن كان الأمل لا يزال يملأني. سيأتي اليوم الذي أجد فيه إنسانيتي في عملٍ أستحقه. ولا أَعيبُ هُنا في الأعمال الدُنيا. لكن فقط أُطالب بأن يحصل مَن يستحق على ما يستحق. هذا هو العَدل.

في تلك السنوات الأربعة بعد تخرجي من الجامعة لم أغفلْ عِشقي للقراءة والملتقيات الثقافية. كنتُ أحصل على راتبي في نهاية الشهر وأول ما أشتري هو الكُتب.

وكنتُ لا أترك ملتقى أو تجمع ثقافي إلَّا بادرتُ بالحضور. ليسانس

الحقوق كان يعطيني الرَونق الاجتماعي وسط هذا التجمع.

فور أن يسألني أحدهم عن مهنتي أقول: «**محامي**». كوَنتُ العديد من الصداقات وسجلتُ على هاتفي العشرات من أرقام الهواتف لأُدباء ورِجال صحافة. كان هناك أمل ولكن لم أَكنْ ألمسه بقوةٍ. أنه يومًا سأجد نفسي. ولكن لم أَكنْ أعلم أين؟ متى؟ وكيف؟

كنتُ كلما تألمتُ كتبت. كنتُ أنا الكاتب والقارِئ. وفي لحظة تَجلِي غامرتُ ونشرتُ بعض كتاباتي على صفحتي الشخصية على الفيس بوك.

واندهشتُ عندما وجدتُ من يقرأ ويُعلِق وينشر كِتاباتي على صفحته هو الآخر. كان عالمًا افتراضيًا حققتُ فيه ما عَجزتُ عنه على أرضِ الواقع. زاد الأمر معي وزادتْ كِتاباتي وأخذتْ شكل أكثر احترافية بمرور الوقت.

اعتقدت أن صديقي الصحفي الذي قابلته في إحدى تلك الندوات منذ عامين يسخر كعادته دائمًا عندما طَلب مني نشر تلك التدوينات التي أحكي فيها سِيرتي داخل الجماعة في الصحف، لكنَّ الأمر لم يَكنْ سُخرية.

ونشرت التدوينات، وأضحتْ كِتابًا، وقلت في نفسي ها قد غرَّدتْ الدُنيا وأضحى الأمل حقيقة.

الآن صِرت كاتبًا معروفًا بل ومن الطبيعي أن أجد اسمي على صفحات الجرائد المختلفة متحدثين عن هذا الكاتِب الناشئ وعن كِتابه.

لكن هذا الكاتب لا يزال يعمل بائعًا متجولًا في سوق قريته. من المؤكد أنَّ هذا الكِتاب سيفتح آفاق العمل الصَحفي. لقد أثبتُ للجميع

الآن أني أستحِق.

أخرجتُ الهاتف الخَلوي من جيبي وبدأتُ في تجميع أرقام رؤساء تحرير بعض الصحف التي توقعتُ أنها لن تُمانع في أن أكون بين فريق عملها.

جاءت إجابة الأُولى بالرفض، وأُتبِعَ الرَفض الأول بالثاني. وكان الرَّدُ الثالث أكثر دبلوماسيةً حينما قال قريبًا نجد لك فرصة. غير أنَّ هذا القريب مرَّ عليه شهر ونصف. وفجأة غُلقَت الأبواب ولكن لم أجدْ تلك الصحيفة التي تقول هيت لك.

عدتُ لنفس المكان الذي أعطاني الأمل في منطقة وسط البلد منذ أربع سنوات ربما أجد مُدرس اللُغة الفرنسية صاحِب بسمة الرِضا وهو يمسح الأحذية لكنني لم أجدْه.

ربما وافته المَنية، ربما مات ولم يشعرْ به أحد، هو مجرد ماسِح أحذية. حتى وإن كان قد صرف وقتًا طويلًا من عُمره ليكون طبيبًا هو الآخر.

عرجتُ على بائع الصُحف وأخذتُ أُقلب ناظري على العناوين الرئيسية. سِوى أني لم أتمالك نفسي من كثرة الضحك وكدتُ أقعُ أرضًا ذلك عندما وقع نظري على المانشيت الرئيسي لصُحف الغد والذي يتحدث عن إضراب أطباء مطالِبين برفع رواتبهم غير الآدمية.

وأنَّ بعضهم يحصل على 250 جنيهًا في الشهر. الأطباء يضربون باحثين عن إنسانيتهم! تركتُ قدمي تأخذني حيث شاءتْ. وكما حدثتْ معجزة كِتابي فمن المؤكد أنَّ مُعجزة التحاقي بصحيفة قد اقتربتْ.

لكن الأمل انطفأَ فجأة عندما تذكرتُ ماسِح الأحذية. خشيتُ أن أختفي أنا الآخر قبل أن أجد إنسانيتي وأصير ما أُحب.

***

راودني ذاك الهاتف وأنا أخطو خطواتي تجاه رحلة عملي الجديدة، سأنزِع عن كاهلي لَقب عاطِل بعد بِضعة أيامٍ من الآن، في مَقر الجريدة أخبرتُ المسئول برغبتي في التدرُب على الصحافة.

بعد حوار لم يستمرْ طويلًا قال: «**تمنَينَا أن تكون واحد من الفريق. لكن..**».

دائمًا ما تَتْبع كلمة لكن أي فرصة عمل جديدة، لكن، تلك الصدمة التي تُحيلك إلى إنسانٍ أشبه بالأبله الذي لا يعي ما الذي حدث؟ ولا ما الذي سيحدث؟ غيرَ أنني سمعتها كثيرًا، وفي مَواطِن مختلفة.

تذكرتُ رئيس تحرير إحدى الصحف تجمعني به علاقةٌ طيبة عندما قال لي ونبرة الأَسى تختلجُ كلماته: «**الأمر جدّ صعب**» قلت: «**كيف و أنت أنت**» قال: «**كل شِلة مسيطرة على جُرنال، يومين كده وكلمني**».

لم أفهمْ حينها ماذا يقصد؟ غير أنَّ الأفكار تبلورتْ سريعًا مع خوضي لغمار التجربة مع رئيس تحرير جريدة ثانية وثالثة. جميعهم أجابوا بنَفْس الرَد: «**يومين تلاتة كده، خليك على تواصُل**».

***

سيكوباتي

أصبح العملُ بائعًا متجولًا في سوق قريتي الصغيرة التابعة لمركز كِرداسة مسألة شِبه مُستَحيلة، لا بيع ولا شراء بعد عِزوف أعضاء الجماعة عن التعامُل معي، ومعاملة أقرب إلى العَزل الكامل عن الحياة.

كل ما فعلته أنني كتبتُ وِجهة نظَري في كِتاب، قُلت إنَّ الجماعات الدينية تحكمتْ في مَصِيري طفلًا، شكَّلَتهُ بأفكارها التي رأيتُ أنها مغلوطة، سردتُ رحلة تخلُصِي من هذه الأفكار.

غير أنَّ رَدَّ الفِعل حول ساحة الرأي كان معركةٌ بين ضدين، ثُنائية الشِعار، إما المَوت أو الحياة.

لم أفهمْ صديقي الشاب عضو الجماعة الذي اشتركتُ معه طفلًا في أول أُسرة جمعتني بهم، حين ألقيتُ عليه السَلام في الطريق فرَدَّ مُستهزئًا: «**أنت سيكوباتي**». قال: «**كيف تنتقد الجماعة وأعضاءها في المساء ثم تُلقي عليَّ السلام في الصَباح؟**» حاولتُ أن أُخبره أنَّ المسألة لا تعدو خِلافًا في الرأي.

حتى ذلك الوقت كنتُ أتعامل مع الجماعات الدينية في العام باعتبارِها فصيل سياسي وطني له رؤية في الحُكم مختلفة عن التيار المدني، قدْ نختلف معها، نرفضها بالكُلية، إلَّا أنَّ المسألة في النهاية صِراع آراء، اختلاف أيديولوجيات.

سألتُ صديقي: «**ما العَيبُ في أن ألقي عليك السَلام، يعني لمَّا أقابلك في الشارع أشتمك؟**» رَدَّ بكل تلقائيةٍ: «آه».

حين ابتعدتُ للمَرة الأُولى عن الجماعة امتنع أول أساتذتي فيها عن إلقاء السلام عليَّ في الطريق، كلما رأيته وحاولتُ محادثته سارع في إبعاد وجهِه عني قاطعًا عليَّ طريق إبداء أي سلام.

في أحد المرات أوقَفْته متعمدًا سائلًا إياه لماذا يشيح بوجهه بعيدًا عني كلما حاولتُ إلقاء السَلام عليه، رَدَّ قائلًا: «**لأنك تركت الجماعة**» فالحياة لديهم هي التواجد داخل دائرة الجماعة، حين تقفز خارج سور هذه الدائرة فأنت تخرج مِن الحياة.

تعددتْ المواقف مع آخرون بعد صدور كِتابي عنهم، كنتُ عائدًا إلي القرية في أحد المرات بعد منتصف الليل حين شاهدت أربعة مراهقين يتهامسون، أعمارهم بين السادسة عشر والثامنة عشر.

عندما أصبحتُ بمحاذاتهم بدؤوا في إلقاء الشتائم، يسبون أبي وأمي وهم في انتظار أي رد فِعل حتى أشتبك معهم، تجاهلتُ شتائمهم وأكملتُ طريقي.

أعرف ذلك الشعور في هذه السن المبكرة، هم الآن في مرحلة الدَفع بأرواحهم من أجل إعلاء كلمة الله كما لَقَنَتْهم الجماعة. غدًا تلفظهم الجماعة أو يلفظونها هُم، غدًا يُصبحون على نفس خُطاي، أو يصبحون على خُطى الجماعة.

أصبحَ الأمرُ لا يُطاق، أُغلِقتْ عليَّ جميع منافِذ الحياة في هذه القرية، لكنني لا أملك مِن القُدرة المادية التي تسمح لي بالعَيش خارجها، إلى جانب أنَّ شعورًا تملَّكَني أوحى إليّ أنَّ تركي قريتي هربًا منهم سيظل يُلاحقُني في أي مكانٍ أذهبُ إليه، فلا يوجد مكان في مصر لا يخلو مِن هذه الجماعات وسيطرتها!

في تلك اللحظة بدأتْ رحلة البحث عن مهنةٍ أُخرى أعيش منها غير البيع والشراء في سوق قريتي، ساعدني أخي الأكبر في الحصول على وظيفة عامِل في إحدى المَحال بمنطقة الشيخ زايد.

لشهرين كنتُ أذهب كل يومٍ في السابعة صباحًا وأعود في العاشرة مساءً، لا أفعل شيئًا سِوى غسل الصحون.

عمل رتيب لم أعتده من قبل، فِعل نفس الشيء بشكلٍ يومي لساعات عديدة لا يفصِل بينهم سِوى نصف ساعة راحة بعدَ الظَهيرة مسألةٌ سيئةٌ جِدًا، قبل البدء في ذلك العَمل بأسابيع عرضتْ جَريدةٌ شهيرة نَشر حلقات كِتابي على صفحاتها، ليعود معها الأمل من جديد في العمل صحفيًا!

***

مقابلة رئيس تحرير تلك الجَريدة كانت هي الأفضل منذ فترة طويلة مررتُ فيها بتجارب مِن سيء إلى أسوأ.

حين عَلِم أنني أنتظره في مكتب الاستقبال خرج بنفسه من مكتبه واستقبلني على الباب، ثم أدخلني مكتبه والذي قابلت فيه سكرتير التحرير التنفيذي للجريدة، تركني معه لإنهاء تفاصيل التعاقد على نشر الحلقات ثم خرج لانشغاله بإعداد الصفحة الأُولى من عَدد الجريدة.

جلستُ المكان أَعقدُ مقارنةً بين عَملي غاسِل صحون في مَحلٍ بالشيخ زايد واستقبال رئيس التحرير الحَافل.

كانت الكتابة عِشقي الدائم، حين كتبتُ رحلتي مع الجماعة فعلتُ ذلك مَحبةً في الكتابة، ولأنها سبيل البوح الوحيد الذي كنتُ أملكه دائمًا.

كتبتُ وأنا لا أنتظر رَدَّ الفِعل الكبير الذي قوبِلَ به الكِتاب، كتبتُ لأنني رَغِبتُ في ذلك من دون انتظار أي نتيجة، لكن وبما أنَّ الكتابة جاءت بي إلى هُنا لِتَكُنْ إذًا هي عملي الدائم، لماذا لا أصير كَاتبًا، لماذا لا أتدرب على الصحافة فأُصبح محررًا ثقافيًا مثلًا.

هي عالَم طالما أحببته، نَعم أنتمي لأُسرةٍ فقيرة ومجتمعٍ ريفي بسيط إلَّا أنَّ الكتابة لم تتعلقْ أبدًا بالبُعد الاجتماعي للشخص، أَغلب مشاهير الكتابة كانوا أكثر مني فقرًا.

قَطَع سكرتير التحرير استرسال تخيلاتي فجأةً حين سألني قائلًا: «**نتكلم في تفاصيل العَقد**»، وقتها كان رَدِي أنَّ النشر في المكان شرف كبير.

لا يعرف سكرتير التحرير أنَّ النَشر في أي جريدة مصرية حتى لو كانت مجرد جريدة محلية لا يقرأها سِوى فريق تحريرها هِيّ حلم كان صعب المنال، بل مستحيل المنال، لو أدرك الرَجل عِشقي للكتابة لطلب هو مالًا نظير نشرهم الكِتاب في الجريدة.

حين أدرك الرجل تردُدي كَتب مكافأةً في العَقد عرفتُ بعد ذلك أنها أقل مما كنتُ أستحقه نظير كِتابتي، لكنَّه عرض في المقابل شيئًا أكبر، شيء غازَل الحلم الذي تمنيته دائمًا:

«**مجرد ما ننتهي من نشر الكِتاب هتكون معانا ضمن فريق عمل الجريدة، جَهِز نفسك، هنبدأ نَشر خِلال يومين، وأسبوعين بالكتير هينتهي النَشر، يعني تقدر تقول الأسبوع اللي بعد الجاي انت معانا**».

خرجتُ مِن الجريدة مزهوًا، أدركتُ الآن أنَّ العالَم أصبح في يدي، لم أعدْ أُريد شيئًا آخر، تكفيني الكِتابة.

في الصَباح ذهبتُ إلى عملي وأنا على يقين أنها مسألة وقت قبل أن أترك غسل الصحون وأبدأ التدريب على العمل الصحفي، حضر الوقت المتفق عليه لبدء نشر الحلقات.

استيقظتُ في السادسة صباحًا حتى أمر على بائع الصُحف قبل ذهابي إلى العمل، اشتريتُ الجريدة وتصفحتها على عَجلٍ باحثًا عن أول حلقة، نُشرتُ على صفحةٍ كاملة بصورةٍ للمؤلف.

أمسكتُ بالجريدة وانطلقتُ إلى مَقر عملي، بدَلْتُ ملابسي وبدأتُ في غسل الصحون، وأنا أضع الجريدة بجواري، أمسكتُ بها أكثر من مَرة، وقرأتُ ما كتبت عدة مرات.

في نهاية اليوم ذهبتُ للمُشرف على المكان وأخبرته أنَّ اليوم هو آخر عهدي للعمل معهم، أعلمتُ الجميع أنني من الأسبوع المُقبل سوف أبدأ التدريب على الصحافة!

***

انتهى نشر حلقات الكِتاب، ولم يَطلبني أحد للعمل معهم أو التدريب في المكان، تركتُ عملي غاسِل صِحون، ومن قَبلُ توقفتْ تجارتي البسيطة في سوق القرية.

ساءت المسألة أكثر من ذي قبل، أنا الآن بلا عمل، لكن وفي نفس الوقت أظهر باستمرار في الفضائيات المصرية، وأغلب الظهور في هذه اللقاءات بلا مقابل مادي، وإن حدث يكون مقابل ضئيل نظير المشاركة، مقابل حصلتُ عليه في لقاءين فقط، لو دعوت شخصين على العَشاء لنفدَ.

وما حصلتُ عليه نظير نشر حلقات الكِتاب في الجريدة كان قد أوشك على النفاد هو أيضًا، إلَّا أنني أمام الناس الآن مجرد خائن، بائع لجماعتي نظير المال!

***

طال غياب مسؤولي الجريدة، لم يُهاتفني أحد للعمل معهم، مؤكد هي مشاغل العمل التي منعتهم عن الاتصال بي، كنتُ أُهاتف سكرتير التحرير أسبوعيًا سائلًا عن فرصة عمل بالجريدة، وفي كل مَرةٍ كان يطلب مني الانتظار، مؤكدًا أنَّ كل شيء تمام.

***

حدث ما انتظرته لشهور طويلة، لا يهم تأخر الوَعد لكنَّه تحقق، سوف تبدأ الآن رحلتي مع تعلم الصحافة.

في المَوعِد المُحدد ذهبتُ إلى مقر الجريدة، على بابها اصطحبني صديقي مسئول قِسم الديسك ليُخبرني أنني سَوف أعمل معهم في القِسم، أخبرته أنني لا أملك الخِبرة الكافية للعمل في الديسك لكنه قال بكل ثقة: «**ما تقلقش، هتقدر**».

بعد تسعة أيام بالتمامِ والكَمال خرجتُ من الجريدة إلى منزلي بلا رجعة لأغلق على نفسي غرفتي كالمعتاد لشهور جديدة، لكنَّها عُزلة اختلفتْ تمامًا عن التجارب السابقة.

في صباح ذلك اليوم وقبل ترك الجريدة بلا رَجعة استقبلني سكرتير التحرير ليُخبرني أنه لا مكان لي في قِسم الديسك، فبحَسب كلامه لا أصلح للعمل في ذلك القِسم.

طلبتُ منه العمل في قِسم الثقافة فقال إنَّ الجريدة لا يوجد بها صفحة مستقلة للثقافة، بعد صمت شعرتُ خِلاله بانكسارٍ حقيقي قلت: «**طب خلوني في الديسك أتعلم ومش عاوز فلوس لحد ما أبقى مستعد**».

هُنا قال المسؤول: «**تعرف رئيس الحِزب المصري الديمقراطي؟**» اندهشتُ من سؤاله، رددتُ بالنفي.

فقال: «**هتشتغل في الديسك ازاي وانت ما تعرفش معلومة بسيطة زي دي، الديسك ليه مواصفات معينة واللي بيشتغل فيه لازم يبقى على ثقافة ودراية بحاجات كتير**».

أجبتُ عليه بنفس نبرة الانكسار تلك: «**المسألة بسيطة، هعمل سيرش على جوجل**» هُنا قال بحِدة: «**خلاص نجيب جوجل يشتغل مكانك**» وأنهى حديثه قائلًا: «**شوف، انت ملكش غير إنك تكتب عن الجماعة، قِسم الإسلام السياسي مُتاح ودا مكانك المناسب**».

***

رابعة

هرج ومرج انتاب الجميع؛ بعد قرار فض اعتصامي رابعة والنهضة، الذي جاوز يومَه الأربعون. ردًا على عَزل الرئيس المدعوم من الجماعات الدينية.

المسألة تأزمتْ أكثر بسبب وجودي في محيط مركز كِرداسة، رنَّ هاتفي لأجد صَوت صديقي يُخبرني قائلًا: «**فيه مجزرة عند قِسم كِرداسة**».

أجريتُ عِدة اتصالات جميعها أكدتْ الخَبر، أخبرني شهود العَيان أنَّ مُلَثَمين اشتبكوا مع قوات الشُرطة لبضع ساعاتٍ انتهت بقتل قوة قِسم الشُرطة ثم التمثيل بجثثهم.

مشهد قريب تكرر في العام 1965م عندما حضر إلى كرداسة بعض رجال الشُرطة العسكرية للقبض على أحد شباب جماعة الإخوان.

كان ما زال عريسًا جديدًا فلمَّا لم يجدوه اصطحبوا زوجته، فغضب لأجله أهل كرداسة، واشتبكوا مع الشرطة العسكرية، ظنوهم لصوصًا خَطفوا الزوجة؛ فقد كانوا يرتدون زيًا مدنيًا ولم يفصحوا عن هوياتهم.

نتج عن الاشتباك إصابة أحدهم إصابة خطيرة، وسقط مغشيًا عليه، عندما علم عُمدة كرداسة بالخَبر لم يقلْ سِوى كلمةً واحدةً: «**خربت كرداسة**».

قوات الجيش والشرطة دخلتْ كرداسة بالدبابات وقتها في حماية طائرات حربية ومدرعات، جاء الصوت من مكبرات الصوت يطلب مِن

الجميع ألَّا يُغادر مكانه.

من كان في بيته يظل في بيته، لا يتحرك أحدكم إن أراد الأمان، تم السيطرة على المدرسة الإعدادية واستخدمتها الشُرطة العسكرية كمعسكر لتأديب هؤلاء الذين تجرءوا على النظام.

كان حدثًا مشهودًا لم ينسه أهل كرداسة، وأيضًا لم ينسه أي نظام حاكم جاء بعد عبد الناصر، فأصبحتْ كرداسة هي المدينة المُحرمة على الالتحاق بأي جهةٍ عسكرية أو شُرطية أو سيادية في الدولة، يكفي أن يُكتب في بطاقتك كرداسة حتى تكون محل اشتباه.

بعد مجزرة قِسم كرداسة الأخيرة استعاد الجميع ذِكرى اقتحامها في العام 1965م لمجرد أنهم أصابوا أحد أفراد الشرطة العسكرية بجروح، فما بالك وقد قَتلوا ومَثلوا بجثث أكثر من اثني عشر شُرَطيا.

كُونِتْ لِجان شعبية ووضِعت سواتر ترابية في بعض الأماكن في انتظار معركة الاقتحام، فلن تُفرط المدينة في أبنائها.

الكثير من الحضور شهِدوا ما حدث أيام عبد الناصر ويخشون تكرار المسألة على أبنائهم، مرَّ وقتٌ ولم يقتحمْ أحد، بدأ الناس يتنهون لجُرم ما حدث، تنصَّل كثيرون منه، غضب آخرون، إلَّا أنَّ السيطرة لا تزال في يد الجماعات الدينية.

روَجتْ الجماعات الدينية بين قواعدها أنها ثورة جديدة وظنَّ الجميع أنَّ التاريخ يُعيد نفسه وأنَّ أحداث يناير تتكرر مرةً أُخرى، لكنَّها الآن ثورة إسلامية صِرفةً دون اشتراك التيارات الكافرة.

بمرور الوقت بدأت الغمامة تذهب قليلًا عن العيون وينكشف كِذب

هؤلاء، وتمنى الجميع لو عادتْ عقارب الساعة للوراء، تمنى الجميع ذلك إلَّا الجماعات الدينية.

***

بعد حادث فض اعتصاميّ رابعة والنهضة مات الكثيرون من قُرى كرداسة، عائلات أغلب هؤلاء الموتَى كانوا ينشرون بين الناس أن ابنهم لم يكنْ مُشتركًا في الاعتصام، يُشيرون إلى أنه كان ذاهبًا إلى عمله أو عائدًا منه، أو مارًا بالصُدفة حين جاءته رصاصة طائشة.

أُصيب أحد أبناء القرية غير المنتمي لأيٍ من الجماعات الدينية، وحين سأله الناس قال: «**كنت و اقف بتفرج**».

كان الخوف هو سيد الموقِف، لم يتوقعْ أحد ما حدث، يحكي صديقي العائد حيًا من الميدان قائلًا: «**أول ما عرفنا إن الشرطة بتفض الاعتصام جمَّعنا بعض وروحنا على ميدان الجيزة، وأول ما وصلنا المكان مبقناش عارفين ضرب النار بيجي منين**».

يسترسل صديقي في الحَكي وهو مذهول، يُشير إلى أنه استلقي بين الموتى على الأرض متصنعًا الموت هو أيضًا حتى لا تأتيه رُصاصة طائشة، يحمد الله أنه عاد إلى منزله حيًا، فآخرون لم يعودوا.

بعضهم سُجِنوا، والبعض رحل ميتًا برصاصات فض الاعتصام.

شاهدتُ شيخًا مُلثمًا يطلق النار بشكل عشوائي من سلاح آلي، أذاع التلفزيون المشهد من أحد المظاهرات بميدان رمسيس، خرج علينا صديقي السَلفي مؤكدًا أنَّ ما ظهر في التلفزيون هو فيديو مُفَبرَك، وأنَّ أحدًا من الجماعات الدينية لم يحملْ سلاحًا.

مات رجال الجيش والداخلية في سيناء في مواجهات مع أعضاء الجماعات المتطرفة، وخرج صديقي السَلفي مرةً أُخرى مؤكدًا أنَّ ما يحدث في سيناء مسرحية تقوم بها الدولة لتُلصِقُها بالجماعات الدينية وأنهم مِن القَتل براء.

صديقي السَلفي على يقين أنَّ داعش صناعة أمريكية، وأنَّ ما يحدث في سيناء من صُنع الحكومة المصرية، وأنَّ الفيديو الخاص بذلك السَلفي الذي شاهدناه في بث مباشر للتلفزيون المصري يُطلِق النار على المارة بشكل عشوائي فيدو مُفبرَك.

لكنَّه رغم كل ذلك يضع صورة الشيخ أسامة بن لادن على صفحته الشخصية بموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك مخاطبًا إياه بالمُجاهد بن لادن!

(تمت)

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com